مؤسسة القدس الدولية
al Quds International Institution (QII)

الطريق إلى القدس

قصة الصراع بين الأوهام الصهيونيّة والحقائق الإسلاميّة حول فلسطين

د. حسن الباش

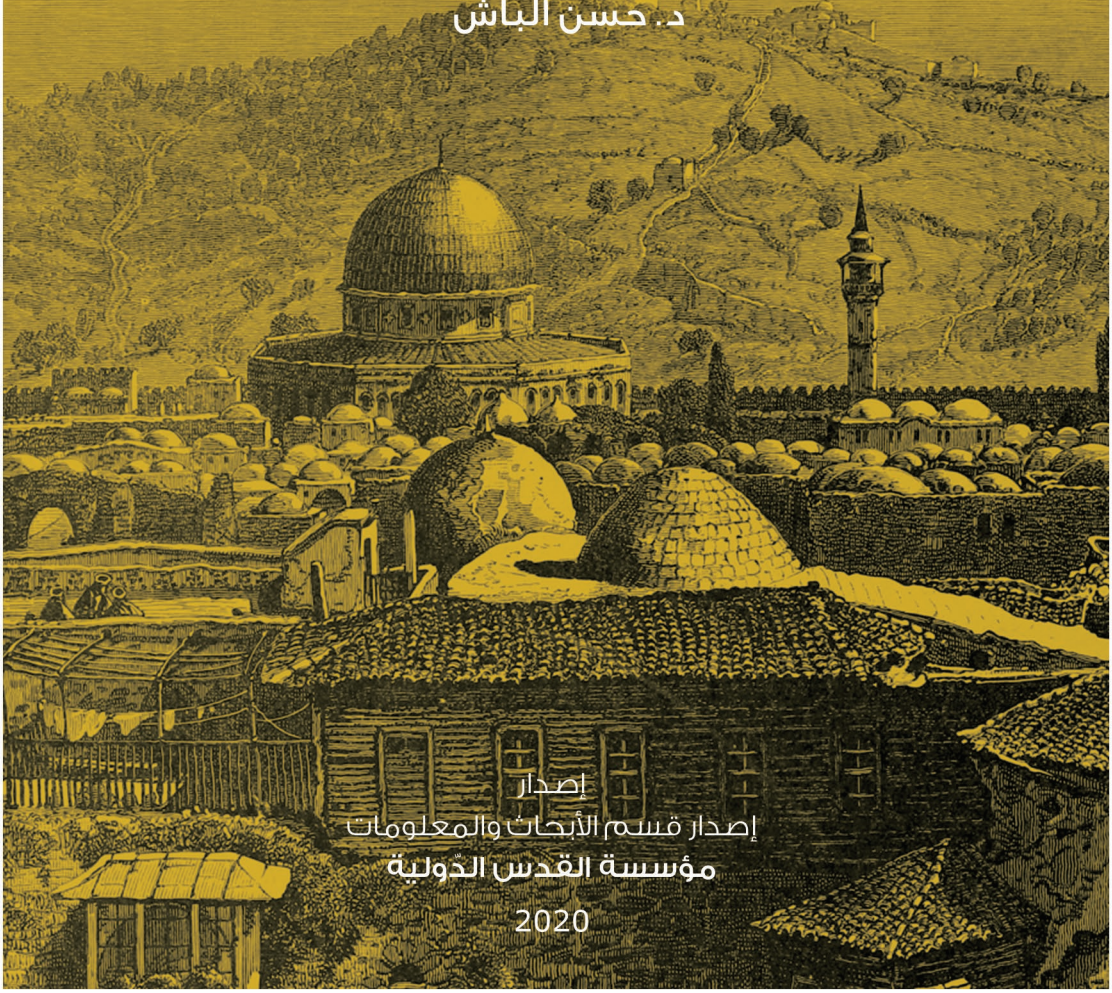

إصدار
إصدار قسم الأبحاث والمعلومات
مؤسسة القدس الدّولية
2020

الطريق إلى القدس

قصة الصراع بين الأوهام الصهيونيّة والحقائق الإسلاميّة حول فلسطين

الطريق إلى القدس

قصة الصراع بين الأوهام الصهيونيّة والحقائق الإسلاميّة حول فلسطين

الدكتور

حسن الباش

رحمه الله

التصميم والإخراج الفني

آية قبلاوي

مؤسسة القدس الدولية

al Quds International Institution (QII)

إصدار قسم الأبحاث والمعلومات

مؤسسة القدس الدولية

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى

2021 م – 1442هـ

بيروت - لبنان

ISBN 978-9953-0-4365-4

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة، سواء كانت إلكترونية، أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر.

مؤسسة القدس الدولية

تلفون 751725 1 961 +

تلفاكس 751726 1 961 +

بريد إلكتروني: info@alquds-online.org

الموقع: www.alquds-online.org

الإهداء

إلى
أرواح شهداء فلسطين والأقصى

إلى
المرابطين في الأرض المباركة حتى يوم الدين

الفهرس

المقدمة 9

الفصل الأول: الوعد التوراتي الأول صناعة عزرا المسبي 13

الفصل الثاني: فلسطين والقدس والتسرب الإسرائيلي الأول 31

الفصل الثالث: داود وسليمان عليهما السلام بين الكفر الإسرائيلي والانتساب المزيف .. 45

الفصل الرابع: تحرير فلسطين في القرن السادس ق. م. 63

الفصل الخامس: ماذا تعني الأرض المباركة في الرؤية الإسلامية 77

خاتمة 160

المصادر والمراجع 162

مقدمة

لم يتشابه أي احتلال في العالم مع الاحتلال الصهيوني لفلسطين والقدس. وقصة هذا الاحتلال أشبه بالخرافة التي تصدم العقل، أو تجعله حائرًا بين التصديق لما جرى لفلسطين وبين المنطق التاريخي الذي تعوّد عليه العلماء والباحثون والمؤرخون.

لقد عرف العالم عبر قرون طويلة أشكالاً عديدة من الاستعمار، وعرف العالم الدوافع الكامنة وراء التحركات الاستعمارية. وهي بالمحصلة أطماع ماديّة، أو استعلاءات عنصريّة، أو كيد يكيده الناس لبعضهم، أو حب للتوسع وإيجاد إمبراطوريات واسعة، تفرض فيها الثقافات أو العقائد أو اللغات أو العادات.

وتلك قصة تاريخٍ طويل مما يسمى (التدافع الحضاري) الذي تتناوب فيه الشعوب بين التمدد والانكفاء حسب بعض النظريات.

ولكننا حين نحلل طبيعة الاحتلال الصهيوني لفلسطين والقدس، نرى أن هناك أساطير دينيّة تتماهى مع الأساطير السياسيّة؛ لتشكل منظومة استعماريّة فكرية، تعمل على احتلال فلسطين مدّعية أن الأسطورة الدينيّة هي وعد إلهي، يجب أن ينفذ، وأن الأسطورة السياسيّة تنفيذ لنظرية الشعب المختار الذي يحق له ما لا يحق لغيره.

ويبدو أن دمج النص الديني مع النص السياسي وجد صداه لدى اليهود المعاصرين، ولدى بعض الأوروبيين من محافظين جدد ومن شابههم، فشنوا حربهم ضدّ العرب والمسلمين، واحتلوا فلسطين، وجعلوا القدس عاصمة يهودية، يجب أن يزول منها أي أثر عربي وإسلامي؛ لتصبح يهوديّة خالصة، "عاصمة للرب التوراتي الصهيوني" ولـ "أبناء العهد من الإسرائيليين".

هكذا يتلخص مفهوم الصراع في الطرف الصهيوني اليهودي البروتستانتي.

وإذا كان الطرف الصهيوني المحتل، يؤسس نظرية احتلاله لفلسطين والقدس على أساس دمج الرؤية التوراتيّة بالرؤية السياسيّة، فماذا بشأن الطرف المقابل؛ أي الطرف الفلسطيني العربي الإسلامي؟.

باختصار، فقد جعل الطرف العربي قضية فلسطين قضية وطنية بالدرجة الأولى، وإن حاول أن يكون لها بُعدها الإسلامي، إلا أنه لم يصل إلى الغاية المطلوبة كما فعل الطرف المعادي المحتل.

لكننا، في التأصيل لنظرية التصادم الحقيقي بين النظرية الصهيونية والرؤية الفلسطينية العربيّة الإسلاميّة، نرى أن المعادل الموضوعي الفلسطيني موجود وقوي ومدعوم بالدرجة الأولى بالحق الواقعي؛ أي الحق الذي هوجم منذ سنة 1948، وكان نتيجته تشريد أصحاب الأرض الذين يعيشون عليها.

والآن، وبعد مرور أكثر من ثماني وستين سنة على احتلال فلسطين، وبعد هذا الصراع المرير بين المحتل وأصحاب الأرض، كان لا بد من التركيز على البعد الديني في الصراع باعتباره غطاءً قويًا لدى الصهيونيّة، باعتباره الرافعة الأولى للأبعاد الوطنية والقومية والإنسانيّة للشعب الفلسطيني.

لقد استطاعت القوى الصهيونيّة أن تقنع شعوب أوروبا وأمريكا بذلك الدمج بين الرؤية التوراتية والفكرة الصهيونية، وأصبح الملايين من هؤلاء مقتنعين بأن "رب اليهود" وعدهم بامتلاك الأرض الفلسطينية، ونفذوا وعده بقوة السلاح.

وإذا عرض الفلسطيني العربي قضيته على تلك الشعوب، فإن الرد البديهي لديهم هو أن هؤلاء اليهود أصحاب حقّ في أرض فلسطين؛ لأن الله وعدهم بها منذ آلاف السنين، وظلوا محافظين عليها، حتى استطاعوا تحقيقها بإقامة دولة لهم على أرضها.

وكان من الطبيعي أن يقتنع الفلسطيني أن الثورة المسلحة لا تكفي وحدها، وأن التصادم المسلح يحتاج إلى تصادم إعلامي قوي، وإلى حجج واقعية أكثر عمقًا وأكثر إقناعًا.

إن جلّ ما يطرحه بعض الفلسطينيين هو إزالة الاحتلال من الأراضي التي احتلت سنة 1967، ونعتقد أن سياسة التنازل لدى عددٍ من قادة الشعب الفلسطيني، جعلت الطرف الصهيوني في مركزٍ أقوى؛ لأن حجته ثابتة، وإعلامه ثابت، وتحركه على مستوى العالم

ظلّ على وتيرة متصاعدة، لا يأبه لا للمطالب العربية، ولا للحجج الفلسطينيّة.

ما هي نظريتنا تجاه نظريتهم؟

ما هي حججنا تجاه ادعاءاتهم؟

كيف نتعامل مع النص الديني؟

ما هي أدواتنا الصادقة والمنطقية في كشف خرافتهم؟

ما هي أدواتنا حتى نستعيد حقنا وننهي المشروع الصهيوني، وإلى الأبد.

كل ذلك يتوقف على طبيعة عملنا الشمولي، الذي يحتاج للدراسات المقنعة المعمقة، ويحتاج لوسائل إعلام، تعمل لتُسمع كل الشعوب حجتنا وأسس حقنا. وتنبش النص التوراتي، وتبين كذبه وخرافته وخديعته الكبرى، وتشرح بعدنا الإسلامي المستند إلى النص القرآني والنص النبوي والتأسيس التاريخي.

إن القدس - بما فيها المسجد الأقصى- جزءٌ من أرض فلسطين، فإذا كنا اليوم نجعل القدس مصدر الصراع، فإن فلسطين في نظرنا تعادل القدس والقدس تعادل فلسطين، فليس من حقنا أن نعزل القدس ونشطب باقي أراضي فلسطين.

القدس ليست منفصلة عن بقية أرض فلسطين التاريخيّة؛ فصراعنا الوجودي هو صراع لأجل كل أرض فلسطين، وإذا كانت القدس تشكل في منظورنا نقطة الارتكاز أو الانطلاق فإن صراعنا مع المحتل الصهيوني هو في كل مكان من أرض فلسطين.

"الطريق إلى القدس" هو رمزٌ من رموز تحركنا؛ لأن القدس والمسجد الأقصى يعنيا الأرض المباركة... أي فلسطين بما فيها من تاريخ يمتد آلاف السنين، وبما فيها من آثار تشهد على عروبة الأرض، بما فيها من ارتباط روحي بين الإنسان وبيئته الطبيعية والاجتماعية.

(الطريق إلى القدس)... الطريق إلى فلسطين كان منذ فجر التاريخ اتجاهًا لكل القوى الغازية من الغرب والشرق، ولكل الانحدارات التي شهدتها المنطقة.

فإذا كانت الغزوة الصهيونية قد استمرت ثماني وستين سنة، فإن الغزوة الرومانية دامت أكثر من ستة قرون. وأن الغزوة الإفرنجية دامت تسعين سنة. وكم تعرضت فلسطين لغزوات أخرى، كغزوة شعوب البحر، وغزوة الإسكندر المقدوني، وغزوات الفرس والتتار والإنجليز.

وأخيرًا، فإن هذه الأرض قدر لها أن تظل شاهدة على غزوات استعمارية عديدة، وأن تظلّ شاهدة على اندحار هذه الغزوات.

ليست الغزوة الصهيونيّة لفلسطين هي الأولى، فكما اندحرت الغزوات السابقة فإن القانون الطبيعي يقول "ستنتهي الغزوة الصهيونية، وتزول".

حوّل الفرنجة الأقصى إلى كنيسة، وحوّلوا المساجد في القدس إلى حظائر للخيول والخنازير، والرومان حوّلوا معابد الكنعانيين إلى معابد وثنية... ويأتي اليهود الصهاينة اليوم؛ ليحوّلوا المسجد الأقصى إلى هيكل يهودي. فلا نستغرب إن هُدم الأقصى، ولا نعجب إذا حوّلت المدينة المقدسة خالصة لليهود.

لكننا نؤمن إيمانًا قطعيًا أن الأقصى رمز للأرض المباركة فلسطين، وهذا الرمز لن يزول، ولو أزيلت الحجارة؛ فالطريق إلى القدس يعني الطريق إلى فلسطين نفسها البوصلة التي ما رقصت عقاربها، إلا باتجاه كوني واحد هو نحو القدس، نحو فلسطين من النهر إلى البحر، ومن رأس الناقورة وحتى أم الرشراش على البحر الأحمر.

الفصل الأول

- الوعد التوراتي الأول
- صناعة عزرا المنفي

الوعد التوراتي...

التأليف من أجل الهوية

لا نزيد على الباحثين والمتخصصين بعلم اللاهوت والفلسفة إذا قلنا إن التوراة أُلّف من قبل عزرا الكاتب المسبي أيام سُحِب بنو إسرائيل من فلسطين إلى بابل في العراق؛ فهو كتاب بشري ليس لكلام الله تعالى علاقة به، وليس لكتاب النبي موسى عليه السلام أيّ علاقة بمحتوياته وأسفاره. ويظهر أن موسى ليس هو مؤلف الأسفار الخمسة، بل إن مؤلفها شخص آخر عاش بعده بزمن طويل[1].

لقد أشارت الأسفار الخمسة إلى وقائع لم تحدث إلا بعد النبي موسى عليه السلام يقينًا، وجعلته شريكًا في صنعها، وأن توراة موسى الحقيقيّة كانت بنصٍّ الأسفار الحالية أصغر في الحجم بكثير من هذه الأسفار الخمسة المعروفة. وأن أسلوب صياغة هذه الأسفار الحالية يجزم بأن موسى عليه السلام لم يكن واضعها، وذلك في طريقة إسناد الضمائر أو التعليق على نص الرواية وشرحها وتشير الأسفار إلى أسماء وأماكن لم تعرف بهذه الأسماء إلا بعد موت النبي موسى عليه السلام بزمن طويل[2].

وقد أقر عدة باحثين أن هذه التوراة العبرانية المؤلفة من تسعة وثلاثين سفرًا كتبت أيام جُلب بنو إسرائيل إلى بابل في العراق، وأن الدوافع وراء كتابتها عديدة، وأن أهم دافع هو محاولة عزرا الكاتب صنع هوية لهؤلاء الإسرائيليين المسبيّين في بابل.

وقد جاء في سفر عزرا:

(مِنْ أَرْتَحْشَسْتَا مَلِكِ الْمُلُوكِ، إِلَى عَزْرَا الْكَاهِنِ كَاتِبِ شَرِيعَةِ إِلهِ السَّمَاءِ الْكَامِلِ[3]...) إلى آخر النص.

1 باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت، ترجمة عبد الله الشرقاوي، القاهرة، دون تاريخ، ص 266.
2 محمد عبد الله الشرقاوي، بحوث في مقارنة الأديان، ص 76–77.
3 سفر عزرا، الأصحاح السابع: 12.

فهذا النص التوراتي يدل دلالة قاطعة على أن مؤلف التوراة الحالية هو عزرا الكاهن، والحقيقة كما قلت إن الدافع الأول لعزرا، وهو كاهن كبير، من تأليف هذا الكتاب، هو إيجاد هوية لبني قومه، ولكن هذه الهوية لا بد لها من أرض تدخل في سياق الوعود الإلهية.

ومن هنا جاء سفر التكوين؛ ليكون وثيقة إلهية تقرر الوعد الإلهي بامتلاك أرض فلسطين وطرد سكانها الأصليين منها.

لقد أدرك عزرا أن هؤلاء الإسرائيليين منذ ظهورهم الأول لم يكونوا أصحاب أرض، إنما هم قبائل بدوية متنقلة، ووجدت في مصر ملجأ لها، حيث مكثت فيها ما يقارب المائتين وخمسين سنة. ولم يكن لهم أيّ علاقة حضارية مادية أو تاريخيّة بأرض فلسطين.

وقد اختار عزرا أرض فلسطين؛ لتكون أرض ميعاد لهؤلاء الإسرائيليين؛ لأنها الأكثر عطاء من ناحية، والأكثر ضعفًا من ناحية أخرى. وباعتبار أن إبراهيم عليه السلام سكن فيها بعد هجرته من العراق؛ لذلك افترض أن الله سبحانه وعد هذا النبي أن يمنحه هذه الأرض هدية له ولنسله من بعده، حسب ما جاء في سفر التكوين.

ومن أغرب الأمور في هذا الوعد الملفق أن الدمج بين الديني والسياسي، كان أول أمرٍ فعله عزرا الكاتب، والذي حوله فيما بعد إلى نظرية صهيونيّة حيث يقول زعماء الصهاينة إن الدين اليهودي هو قومية اليهود، وهذا بالطبع يخالف جميع النظريات السياسية الاجتماعية.

ويبدو أن ما كتبه عزرا كان حلمًا متخيلًا وأمنية له ولبني إسرائيل؛ لأنه ما كان ليتحقق لولا القوة المسلحة الصهيونيّة، ولولا مساندة القوى الاستعماريّة لهذا المشروع الديني القومي الاستعماري.

ومن المعروف تاريخيًا أن المنطقة شهدت في منتصف الألف الأخيرة قبل ميلاد المسيح وجود دول حضارية كبيرة. كدولة البابليين في العراق وشمال شرق سورية. ودولة الفراعنة في مصر ودولة الفرس، وكان هناك دول صغيرة متناثرة في الداخل السوري ولبنان وفلسطين،

ولم يكن لبني إسرائيل؛ أرض لأنهم في أساسهم جزء من تلك القبائل المتنقلة في البوادي بحثًا عن الكلأ.

وفي كتابة التوراة حاول عزرا أن يتخيل لقومه أرضًا، فوقع اختياره على أرض فلسطين دون غيرها. على الرغم من أنها كانت في تلك الفترة حاضنة لشعبها العربي الكنعاني في القدس وأريحا وعكا ويافا وبيسان وغزة، وهذا ما اعترفت به التوراة نفسها.

وقد جاء في سفر التثنية قول التوراة: (أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّ) 7:1.

وجاء في سفر يشوع: (فَسَكَنَ الْكَنْعَانِيُّونَ فِي وَسَطِ أَفْرَايِمَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ)[1]، وقد ورد ذلك أيضًا في سفر القضاة، 1: 28–30.

ويقطع ابن حزم الأندلسي، وكذلك الإمام الجويني، بأن هذا الكتاب قد ألفه عزرا الكاتب الذي يطلقون عليه الوراق.

وهذه النسخة -أي التوراة- كتبها عزرا قبل بعثة المسيح عليه السلام بخمسمئة وأربعين سنة، وقد رفع بنو إسرائيل قدر عزرا وهو الذي نسخها من نسخة أقدم.

ويقول السموأل بن يحيى المغربي: "وبهذا، أصبحت الظروف مواتية لوضع توراة جديدة بدل توراة موسى التي ضُيّعت. فلما رأى عزرا أن القوم قد أُحرق هيكلهم، وزالت دولتهم، وتفرق جمعهم، ورُفع كتابهم، وجمع من محفوظاته ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما لفق منه هذه التوراة التي بأيديهم الآن"[2].

1 سفر يشوع، الإصحاح السادس عشر: 10.
2 السموأل بن يحيى المغربي، إفحام اليهود، مخطوط، ص 138.

من أين بدأ الوعد الإلهي؟

يحاول كاتب التوراة أن ينسب إلى النبي إبراهيم كل جماعة "إسرائيل"؛ ليشكل لهم غطاءً دينيًا يعترف به جميع أبناء المنطقة، كون العرب من مسيحيين ومسلمين يقدرون هذا النبي، ويعدونه الجد الأكبر لجميع أنبياء المنطقة.

ويحاول أن يجيّر نبوة هذا النبي لمنحى سياسي، ويخلط بين النبوة وبين امتلاك أرض لتشكل عليها دولة؛ لذلك لن نرى في النص التوراتي أي وضوح لمعنى النبوة بقدر ما نجد الوضوح بارزًا في الوعد الإلهي بامتلاك الأرض.

يأتي في النص التوراتي قوله: (31 وَأَخَذَ تَارَحُ أَبْرَامَ ابْنَهُ، وَلُوطًا بْنَ هَارَانَ، ابْنَ ابْنِهِ، وَسَارَايَ كَنَّتَهُ امْرَأَةَ أَبْرَامَ ابْنِهِ، فَخَرَجُوا مَعًا مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوْا إِلَى حَارَانَ وَأَقَامُوا هُنَاكَ 32 وَكَانَتْ أَيَّامُ تَارَحَ مِئَتَيْنِ وَخَمْسَ سِنِينَ. وَمَاتَ تَارَحُ فِي حَارَانَ)[1].

وتقول التوراة: (6 وَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ 7 وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: "لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ")[2].

فهذا هو اعتراف التوراة، عندما وصل النبي إبراهيم إلى أرض شكيم (نابلس) كان الكنعانيون يسكنون هذه الأرض قبل مجيئه. وقال الرب له -حسب زعم كاتب التوراة- قال (لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ)[3]. فأي أرض المقصود بها الوعد؟ هل هي شكيم أم بلوطات مورة، ثمّ لماذا لم يسكن أبرام في هذه الأرض طالما أن ربه وعده بها وبتملكها؟

وكيف يقول له (لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ)، وهو ليس له نسل لا ولد ولا بنت وكان عمره حسب نص التوراة خمسة وسبعين سنة، وكانت امرأته عاقرًا وهذا حسب نص التوراة؛ (30 وَكَانَتْ سَارَايُ عَاقِرًا لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ)[4].

1 سفر التكوين، الأصحاح الحادي عشر: 31-32.
2 التكوين، الثاني عشر: 6-7.
3 التكوين، الثاني عشر: 7.
4 التكوين: الثالث عشر: 30.

إذًا، فإن كاتب التوراة ركّب القصة كلها تركيبًا قصصيًا متخيلًا، وركّب أمورًا في المقدمة لهذه القصة وأمورًا في الخاتمة، حتى يربط إبراهيم عليه السلام بالأرض الموعودة، حسب زعمه.

وتظهر الكذبة الكبرى حين تقول التوراة (3 وَسَارَ فِي رِحْلاَتِهِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى بَيْتِ إِيلَ، إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَتْ خَيْمَتُهُ فِيهِ فِي الْبَدَاءَةِ، بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ وَعَايَ)[1].

ونحن نسأل من يعتقدون أن التوراة كتاب مقدس، من أين جاء اسم "عاي"؟ هل فعلًا كانت هناك قرية أو منطقة كان اسمها "عاي" زمن النبي إبراهيم؟ الحقيقة أن هذا الاسم أطلق من قبل الغزاة الإسرائيليين على منطقة عربية كنعانية بعد التسرب إلى فلسطين سنة 1200 ق.م. وهذا التاريخ يبتعد عن تاريخ وجود النبي إبراهيم بنحو 700 سنة[2].

وتشير هذه الأسفار إلى أسماء أماكن لم تعرف بهذه الأسماء إلا بعد موت موسى عليه السلام بزمن طويل. ولم يكن ذلك على سبيل التنبؤ الإعجازي من موسى عليه السلام، ولكن كان على سبيل القص الروائي[3]. ويجب أن نذكر أن بعض الأماكن لم تطلق عليها الأسماء التي عرفت بها في زمن موسى عليه السلام، بل أطلق عليها أسماء عرفت بها بعده بوقت طويل؛ إذ يقال في التوراة إن إبراهيم تابع أعداءه حتى دان. وهو اسم لم تأخذه المدينة التي تحمله إلا بعد موت يشوع بمدةٍ طويلة، وقد سموا المدينة -دان- باسم أبيهم الذي هو ولد من أولاد يعقوب وكان اسم المدينة قبل ذلك "لاييش"[4].

ومرةً ثالثة لا يغيب عن كاتب التوراة هذا الكابوس، وهو كابوس الوعد الإلهي المزعوم إذ يقول: (14 وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ، بَعْدَ اعْتِزَالِ لُوطٍ عَنْهُ: "ارْفَعْ عَيْنَيْكَ وَانْظُرْ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ شِمَالاً وَجَنُوبًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا، 15 لأَنَّ جَمِيعَ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ إِلَى الأَبَدِ. 16 وَأَجْعَلُ نَسْلَكَ كَتُرَابِ الأَرْضِ، حَتَّى إِذَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّ تُرَابَ الأَرْضِ فَنَسْلُكَ أَيْضًا يُعَدُّ. 17 قُمِ امْشِ فِي الأَرْضِ طُولَهَا وَعَرْضَهَا، لأَنِّي لَكَ أُعْطِيهَا")[5].

1 التكوين، الحادي عشر: 3.
2 التكوين، الثاني عشر: 1-2.
3 باروخ اسبينوزا، ص 266–268.
4 باروخ اسبينوزا، ص 271.
5 التكوين، الثالث عشر: 14–17.

وفي نفس الأصحاح تقول التوراة: (8 فَقَالَ أَبْرَامُ لِلُوطٍ: "لاَ تَكُنْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ، لأَنَّنَا نَحْنُ أَخَوَانِ. 9أَلَيْسَتْ كُلُّ الأَرْضِ أَمَامَكَ؟ اعْتَزِلْ عَنِّي. إِنْ ذَهَبْتَ شِمَالاً فَأَنَا يَمِينًا، وَإِنْ يَمِينًا فَأَنَا شِمَالاً")[1].

وهذا النص يؤكد أن إبراهيم ليس له مكان يستقر فيه، فهو حسب النص التوراتي يفتش عن المرعى وكذلك لوط، فهو يخيره أن يذهب في أي اتجاه لأنه هو سيذهب في الاتجاه المعاكس.

ولكن في النص الذي سبق هذا النص، تقول التوراة (14 وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ، بَعْدَ اعْتِزَالِ لُوطٍ عَنْهُ: "ارْفَعْ عَيْنَيْكَ وَانْظُرْ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ شِمَالاً وَجَنُوبًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا")[2]، فكيف يخير لوطًا بأن يختار الاتجاه الذي يريد وفي الوقت نفسه هو موعود من قبل الرب بكل الاتجاهات؟

وتقول التوراة: (17"قُمِ امْشِ فِي الأَرْضِ طُولَهَا وَعَرْضَهَا، لأَنِّي لَكَ أُعْطِيهَا". 18 فَنَقَلَ أَبْرَامُ خِيَامَهُ وَأَتَى وَأَقَامَ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا الَّتِي فِي حَبْرُونَ)[3].

وإذا رجعنا قليلًا نرى التوراة تقول: (6 وَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ)[4] بينما هنا تقول: (وَأَقَامَ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا الَّتِي فِي حَبْرُونَ)[5].

فنحن نرى هنا بلوطات مورة عند شكيم وبلوطات ممرا في حبرون.

فما هي مورة وما هي ممرا؟ ولماذا هنا بلوطات شكيم وهنا بلوطات حبرون؟ لا ندري ماذا يقصد كاتب التوراة، أم أنه تخيل أن هناك قرب شكيم بلوطات مورة وقرب الخليل بلوطات ممرا.

1 التكوين، الثالث عشر: 8–9.
2 التكوين، الثالث عشر: 14.
3 التكوين، الثالث عشر: 17–18.
4 التكوين، الثاني عشر: 6.
5 التكوين، الثالث عشر: 18.

وتقول التوراة: (17 قُمِ امْشِ فِي الأَرْضِ طُولَهَا وَعَرْضَهَا)[1] فأي أرض هي المقصودة؟ وهل هذه الأرض فارغة من السكان حتى يمشي في طولها وعرضها؟ فالسكان موجودون! وقبل قليل قالت التوراة (وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ)[2].

وتقول التوراة: (13 فَأَتَى مَنْ نَجَا وَأَخْبَرَ أَبْرَامَ الْعِبْرَانِيّ. وَكَانَ سَاكِنًا عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا الأَمُورِيّ، أَخِي أَشْكُولَ وَأَخِي عَانِرَ. وَكَانُوا أَصْحَابَ عَهْدٍ مَعَ أَبْرَامَ)[3].

فنلاحظ هنا إقحام لكلمة العبراني على النص؛ فلأول مرة نسمعها في سفر التكوين، فلماذا لم تقل إبرام الكلداني لأنه جاء من أوركلدان؟ ولماذا اخترع كاتب التوراة هذا الاسم على الرغم من أن لغة إبراهيم كانت الكلدانية؟

الواقع كما أوردت؛ فإنه ينتقل من صفحة إلى أخرى، فيضيف شيئًا جديدًا؛ ليمهد للمشروع الذي يطرحه وهو أن أرض كنعان أصبحت بقدرة قادر أرض الإسرائيليين. ثم في هذا النص يتضح لنا ماذا تعني كلمة ممرا، فهو اسم الشخص الأموري أي الشخص من قبيلة كنعانية ويطلق على أفرادها الأموريين.

ثم تقول التوراة: (وَكَانُوا أَصْحَابَ عَهْدٍ مَعَ أَبْرَامَ)[4]. ماذا يعني ذلك العهد؟ فمن ناحية إذا كان العهد عهد جيرة، فهذا ينفي نفيًا قاطعًا أن يكون الله وعد إبراهيم بامتلاك الأرض؛ لأن ذلك يتناقض مع عهد الجيرة. وإذا كان العهد عهد عدم اعتداء، فمن أين يأتي ذلك وهم أصحاب أرض وملوك وإبراهيم لم يكن سوى رجل وحده؟ وهو مستضاف عند هؤلاء العرب الأموريين. والشيء العجيب أن التوراة تقول:

(14 فَلَمَّا سَمِعَ أَبْرَامُ، أَنَّ أَخَاهُ سُبِيَ جَرَّ غِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّنِينَ، وِلْدَانَ بَيْتِهِ، ثَلاَثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ. 15 وَانْقَسَمَ عَلَيْهِمْ لَيْلاً هُوَ وَعَبِيدُهُ فَكَسَّرَهُمْ وَتَبِعَهُمْ إِلَى حُوبَةَ الَّتِي عَنْ شَمَالِ دِمَشْقَ)[5].

1 التكوين، الثالث عشر: 17.
2 التكوين، الثاني عشر: 6.
3 التكوين، الرابع عشر: 13.
4 التكوين، الرابع عشر: 13.
5 التكوين، الرابع عشر: 14-15.

فمن أين أصبح لإبرام ثلاثمئة وثمانية عشر عبدًا مقاتلين، ولم يمض على وجوده بضعة أشهر؟ ثمّ إن وصوله إلى حوبة قرب دمشق، يعني أن جيشًا كان يقوده وهذا الجيش لم يواجه سكان دمشق وما جاورها وهي ممالك معروفة.

إننا نلاحظ مرة بعد مرة جنوح خيال كاتب التوراة إلى حدّ الأسطورة التي تضحك وتبكي.

وتقول التوراة: (17 فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ لاسْتِقْبَالِهِ، بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ كَسْرَةِ كَدَرْلَعَوْمَرَ وَالْمُلُوكِ الّذِينَ مَعَهُ إِلَى عُمْقِ شَوَى، الّذِي هُوَ عُمْقُ الْمَلِكِ. 18 وَمَلْكِي صَادِقُ، مَلِكُ شَالِيمَ، أَخْرَجَ خُبْزًا وَخَمْرًا. وَكَانَ كَاهِنًا للهِ الْعَلِيّ. 19 وَبَارَكَهُ وَقَالَ: "مُبَارَكٌ أَبْرَامُ مِنَ اللهِ الْعَلِيّ مَالِكِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، 20 وَمُبَارَكٌ اللهُ الْعَلِيُّ الّذِي أَسْلَمَ أَعْدَاءَكَ فِي يَدِكَ". فَأَعْطَاهُ عُشْرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)[1].

ويتضح من هذا الكلام التوراتي أن هناك ملكين معروفين، هما ملك سدوم وملك شالم أي (القدس).

ومن خلال كلام التوراة عن ملكي صادق، أنه ملك شالم وكان كاهنًا لله العلي وباركه، وقدم أبرام (إبراهيم) عشرًا من كل شيء.

وهذا يعني أن إبراهيم كان على صلة حميمة بالملوك الذين يحكمون أراضي فلسطين؛ فهذا ملكي صادق هو ملك شالم- القدس. وهذا ملك سدوم التي هي من مدن البحر الميت قبل أن يدمرها الله. فأين هذا من الوعد الموهوم الذي وعده الله لإبرام بأن يتملك هذه الأرض؟ وخاصة أن ملكي صادق ملك القدس رجل موحد يؤمن بإله السماوات والأرض فهل يعقل أن يجرده الله من أرضه ويمنحها لغيره؟

ثمّ تقول التوراة: (7 وَقَالَ لَهُ: "أَنَا الرّبُّ الّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيّينَ لِيُعْطِيَكَ هذِهِ الأَرْضَ لِتَرِثَهَا")[2]. ثمّ مباشرة بعد هذا النص تقول التوراة: (13 فَقَالَ لأَبْرَامَ: "اعْلَمْ يَقِينًا أَنّ

1 التكوين، الرابع عشر: 17-20.
2 التكوين، الخامس عشر: 7.

نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ، وَيُسْتَعْبَدُونَ لَهُمْ. فَيُذِلُّونَهُمْ أَرْبَعَ مِئَةِ سَنَةٍ")[1]. ثمّ في آخر الأصحاح الخامس عشر تقول التوراة: (18 فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلاً: "لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ. 19 الْقِينِيِّينَ وَالْقَنِزِّيِّينَ وَالْقَدْمُونِيِّينَ 20 وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفَرِزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ 21 وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ")[2].

فنحن نلاحظ أنه جزاء للمحبة والمباركة بين أبرام وملكي صادق يأتي الرب ليقول لإبرام (7 وَقَالَ لَهُ: "أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ لِيُعْطِيَكَ هذِهِ الأَرْضَ لِتَرِثَهَا")[3]. فهذا هو حس كاتب التوراة القائم على الإفساد والفساد ونقض العهود والمواثيق. ولكن كاتب التوراة لكثرة غبائه يورد أن الرب قال لإبرام (أَنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ)[4] وهذا اعتراف واضح وتناقض صارخ؛ فتارة يعده بالأرض، وتارة يقول له (أَنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ)!

ثم نلاحظ أن الوعد الإلهي يحدد جغرافيًا ما بين النيل إلى الفرات، حيث توجد في هذه المساحة الشاسعة التي تضم قسمًا من مصر وسيناء وفلسطين وسورية وفلسطين ولبنان والأردن وجزءًا من أرض العراق عشرة قبائل عربية عريقة في المنطقة وهذا هو الحس السياسي المتخيل. وعليه بنت الصهيونية شعارها القائل "حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل".

1 التكوين، الخامس عشر: 13.
2 التكوين، الخامس عشر: 18–21.
3 التكوين، الخامس عشر: 7.
4 التكوين، الخامس عشر: 13.

أبناء النبي إبراهيم وعلاقتهم بأرض فلسطين:

في الأصحاح السادس عشر تورد التوراة قصة عقم سارة زوج إبراهيم عليه السلام وزواجه من هاجر وإنجابه إسماعيل (16 كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ لأَبْرَامَ)[1].

ثم تقول التوراة (1 وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: "[...] 8 وَأُعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلهَهُمْ")[2].

ثم تقول: (15 وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: "سَارَايُ امْرَأَتُكَ لاَ تَدْعُو اسْمَهَا سَارَايَ، بَلِ اسْمُهَا سَارَةُ. 16 وَأُبَارِكُهَا وَأُعْطِيكَ أَيْضًا مِنْهَا ابْنًا. أُبَارِكُهَا فَتَكُونُ أُمَمًا، وَمُلُوكُ شُعُوبٍ مِنْهَا يَكُونُونَ")[3].

وتقول التوراة: (18 وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلهِ: "لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ!". 19 فَقَالَ اللهُ: "بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ")[4].

ثم تقول: (21 وَلكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ)[5].

نقف الآن مع مرحلة جديدة من الوعد الإلهي المزعوم، وهذه المرحلة تخص أولاد النبي إبراهيم وزوجاته. ونقول زوجاته؛ لأنه كما ورد في التوراة يتزوج من امرأة ثالثة غير سارة وهاجر اسمها قطورة، وهي من بني كنعان، وتنجب لإبراهيم ستة أبناء كما سنرى بعد قليل.

1 التكوين، السادس عشر: 16.
2 التكوين، السابع عشر: 1 و8.
3 التكوين، السابع عشر: 15-16.
4 التكوين، السابع عشر: 18-19.
5 التكوين، السابع عشر: 21.

سنرى أن أولاد النبي إبراهيم هم إسماعيل وإسحاق وزمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا (3 وَوَلَدَ يَقْشَانُ: شَبَا وَدَدَانَ. وَكَانَ بَنُو دَدَانَ: أَشُّورِيمَ وَلَطُوشِيمَ وَلأُمِّيمَ. 4 وَبَنُو مِدْيَانَ: عَيْفَةُ وَعِفْرُ وَحَنُوكُ وَأَبِيدَاعُ وَأَلْدَعَةُ. جَمِيعُ هؤُلاَءِ بَنُو قَطُورَةَ)[1].

ونتوقف عند قول التوراة: (وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ")[2]. وقبل هذا النص وفي الأصحاح السادس عشر عندما تراءى له الرب وقال له: (8 وَأُعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلهَهُمْ")[3].

فلنفترض أن هذا الوعد كما تزعم التوراة صحيح، فإن النصوص السابقة بالوعد لم تكن تحدد من هم نسل إبراهيم؛ فالقول عام (لِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ)؛ فنسل إبراهيم إسماعيل وإسحاق وإخوتهما الستة أبناء قطورة. فهذا الوعد ينطبق على الجميع ولا تمييز بين واحد وآخر. لقد نطق الله بالوعد لإبراهيم أكثر من ست مرات دون تحديد أي من نسله، فما الذي جرى في الأصحاح السابع عشر حتى ينحرف الوعد عن نسل إبراهيم إلى واحد فقط من نسله وهو إسحاق؟ هل هو تمييز عنصري بين ابن وابن أم أن الله الذي وعد وعده لا يساوي بين الأبناء؟

فمن خلال ذلك نقول ليس الأبناء متميزين، ولا فضل لولد على آخر، والذي جرى أن كاتب التوراة وبعد نحو 1,400 سنة من وفاة النبي إبراهيم جاء ليكتب من عنده هذا العهد لنسل إسحاق الذي ينتسب كاتب التوراة لأحد أسباطه. فهو يجيّر كلامًا منسوبًا للرب لصالح أحفاد إسحاق؛ لأن جماعة إسرائيل المسبيين في بابل هم من نسل هؤلاء الأسباط أولاد يعقوب وأحفاد إسحاق وإبراهيم عليهما السلام.

1 التكوين: الخامس والعشرون: 3–4.
2 التكوين، السابع عشر: 19.
3 التكوين، السابع عشر: 8.

وقد استبعد كاتب التوراة أولاد إبراهيم الآخرين بسبب حسه الأناني العنصري، ومن جانب آخر فإن إسماعيل عليه السلام هو بكر النبي إبراهيم ولم يولد إسحاق إلا بعد ثلاثة عشر عامًا من ولادة إسماعيل، وقد شارك إسماعيل عليه السلام أباه إبراهيم في كثير من الأمور منها أنه أقام قواعد الكعبة معه، وهذا ما تنكره التوراة. ومن ناحية أخرى فإن الميراث حسب التشريع اليهودي هو حق الابن البكر، وهذا ما صرحت به التوراة؛ فمن حق إسماعيل أن يرث أباه في رزقه وماله وأرضه.

فإذا صح هذا الوعد فإن الحق الأول في إرث إبراهيم عليه السلام هو لإسماعيل، وليس لغيره. ومع كل هذا فإننا ننكر هذا الباطل الذي أقره كاتب التوراة، وهو بعيد كل البعد عن وعد إلهي. وحاشا لله أن يميز بين نبي ونبي؛ أي بين إسماعيل وإسحاق. إن الوعد المزعوم تلفيقة توراتية، نسبوها إلى الله، وافتروا فيها عليه.

ونتابع مسيرة أبناء إبراهيم وعلاقتهم بالوعد المزعوم؛ لنرى التلفيقات والكذبات تكثر؛ ففي الإصلاح الحادي والعشرين تقول التوراة: (9 وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَمْزَحُ، 10 فَقَالَتْ لإِبْرَاهِيمَ: "اطْرُدْ هذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّ ابْنَ هذِهِ الْجَارِيَةِ لاَ يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ". 11 فَقَبُحَ الْكَلاَمُ جِدًّا فِي عَيْنَيْ إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ)[1].

لاحظ قول التوراة لترى قمة الحس العنصري منذ ذلك الوقت.

فتعليقًا على هذا النص نقول: لأن الولد إسماعيل كان يمزح، قالت سارة اطرد هذه الجارية وابنها، وكأن هذه -هاجر- ليست زوجة النبي إبراهيم. وكأن إسماعيل ليس ابنه، فبكل حقد وغيرة وأنانية تتلفظ سارة التوراتية بهذه الكلمات. ولا ننسى أنها عندما ولدت إسحاق وقالت هذا الكلام كانت في التسعين من عمرها. فإما هي عجوز خرفة، وإما أن كاتب التوراة العنصري أسقط عنصريته على تلك المرأة وهي ليس لها ذنب في ذلك.

1 التكوين، الحادي والعشرون: 9-11.

لذلك، نرى أن كلام سارة قبح في عيني إبراهيم، ومن الطبيعي أن كلامها قبيح، ولو كانت عاقلة وعندها ذلك الإحساس بأنها زوجة نبي لما تلفظت بهذا الكلام الذي لا يليق بامرأة نبي.

بالطبع هذا ما جاء في التوراة وهذا ردنا عليه؛ أما القرآن الكريم فليس فيه هذه الكلام لا من قريب ولا من بعيد.

المهم، أن أهم جملة في هذا النص التوراتي قولها: (لأَنّ ابْنَ هذِهِ الْجَارِيَةِ لاَ يَرِثُ مَعَ ابْنِي)[1] فماذا يرث مع ابنها؟ هل كانت تعرف هي أيضًا بالوعد الإلهي المزعوم بتملك الأرض؟

أم أن قصدها أن لا يرث من رزق أبيه من أغنام وأبقار؟ إن هذا الكاتب الخبيث -أي كاتب التوراة- ركب كل قصته تركيبًا سيئًا؛ ليصل إلى غاية مؤداها «أن الوعد الإلهي المزعوم انحصر بواحد فقط من أولاد إبراهيم عليه السلام وحرم الآخرين من هذا الميراث».

وما هذا الميراث؟ إنه وعد باحتلال أرض كنعان التي فيها عشرة قبائل عربية كنعانية كبيرة، شكلت عدة ممالك حضارية معروفة في أرض فلسطين.

ومع كل هذا فإن الوعد المزعوم لا يتحقق لا في زمن إبراهيم ولا في زمن أولاده. إذًا كيف يقول الوعد (لك ولنسلك من بعدك أعطي هذه الأرض)؟ وعدم تحقق الوعد يعني أمرين: الأول، إن الله «كاذب» يَعِد إبراهيم ولا يفي بوعده، وهذا طبعًا يتحمل مسؤوليته كاتب التوراة؛ فحاشا لله أن يعد نبيه أو يَعِد أيًا من مخلوقاته ولا ينفذ وعده.

الأمر الثاني، يدل ذلك على جهل كاتب التوراة، وكشف كذبته؛ لأنه لا يوجد هناك وعد إلهي إنما هناك تخيل عنصري قومي سياسي لإقامة ما يسمى «أرض إسرائيل»؛ تطبيقًا لهذا الوعد المزعوم.

وفي آخر الأصحاح الحادي والعشرين تقول التوراة: (34 وَتَغَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ فِي أَرْضِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ أَيَّامًا كَثِيرَةً)[2].

1 التكوين، الحادي والعشرون: 10.
2 التكوين، الحادي والعشرون: 34.

إذًا؛ فالتوراة تقر بأن أرض الفلسطينيين أرض غربة لإبراهيم، وليست أرض ميعاد له ولنسله، أرأيتم هذا التناقض الصارخ بين هذا الكلام وذلك الكلام؟!

ولننظر سوية إلى ما تقوله التوراة في الأصحاح الثالث والعشرين: (فَأَتَى إِبْرَاهِيمُ لِيَنْدُبَ سَارَةَ وَيَبْكِيَ عَلَيْهَا. 3 وَقَامَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَمَامِ مَيِّتِهِ وَكَلَّمَ بَنِي حِثّ قَائِلاً: 4 "أَنَا غَرِيبٌ وَنَزِيلٌ عِنْدَكُمْ. أَعْطُونِي مُلْكَ قَبْرٍ مَعَكُمْ لأَدْفِنَ مَيْتِي مِنْ أَمَامِي". 5 فَأَجَابَ بَنُو حِثّ إِبْرَاهِيمَ قَائِلِينَ لَهُ: 6 "اِسْمَعْنَا يَا سَيِّدِي. أَنْتَ رَئِيسٌ مِنَ اللهِ بَيْنَنَا. فِي أَفْضَلِ قُبُورِنَا ادْفِنْ مَيْتَكَ، لاَ يَمْنَعُ أَحَدٌ مِنَّا قَبْرَهُ عَنْكَ حَتَّى لاَ تَدْفِنَ مَيْتَكَ". 7 فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ وَسَجَدَ لِشَعْبِ الأَرْضِ، لِبَنِي حِثّ)[1].

فهذا اعتراف بأن الأرض ملك لشعب، وهذا اعتراف بأن إبراهيم عليه السلام غريب في هذه الأرض فهو لا يملك مكان قبر يدفن فيه زوجته، فأين هذا من وعد الله له بأن الأرض ملكه ولنسله من بعده؟

ثم لننظر إلى جواب هذا الشعب الطيب الكريم، حيث قالوا له: أنت رئيس من الله بيننا أدفن ميتك في أحسن قبورنا ولا أحد يمنعك من ذلك.

ثمّ هل يعقل أن يسجد نبي الله إبراهيم لهؤلاء؟ كان من الممكن أن يشكرهم دون السجود لهم، ولكن كاتب التوراة الغبي تصور الأمور حسب نفسه وقومه وهم في سبي بابل يسجدون لأسيادهم من دون الله. وهذا هو دينهم في سيرتهم كلها. ألم يعبدوا العجل؟ ألم يسجدوا لعشتار وغيرها من الأصنام كما قالت التوراة نفسها؟

وتقول التوراة: (59 فَصَرَفُوا رِفْقَةَ أُخْتَهُمْ وَمُرْضِعَتَهَا وَعَبْدَ إِبْرَاهِيمَ وَرِجَالَهُ. 60 وَبَارَكُوا رِفْقَةَ وَقَالُوا لَهَا: "أَنْتِ أُخْتُنَا. صِيرِي أُلُوفَ رِبْوَاتٍ، وَلْيَرِثْ نَسْلُكِ بَابَ مُبْغِضِيهِ")[2].

1 التكوين، الثالث والعشرون: 2–7.
2 التكوين، الرابع والعشرون: 59–60.

فلنتصور هذه الوصية من أشقاء رفقة التي ستصبح زوجة إسحاق عليه السلام: (صِيرِي أُلُوفَ رِبْوَاتٍ، وَلْيَرِثْ نَسْلُكِ بَابَ مُبْغِضِيهِ). فما الذي أخبرهم أن هذه البنت رفقة ستحمل ولد الألوف؟ وما الذي عرفهم بأنها وأولادها سيرثون باب مبغضيهم؟

ذلك هو كاتب التوراة الذي لا يفارقه الهاجس باحتلال الأرض حتى في أدق تفاصيل الحياة الاجتماعية.

وتقول التوراة: (8 وَأَسْلَمَ إِبْرَاهِيمُ رُوحَهُ وَمَاتَ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ، شَيْخًا وَشَبْعَانَ أَيَّامًا، وَانْضَمّ إِلَى قَوْمِهِ. 9 وَدَفَنَهُ إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنَاهُ فِي مَغَارَةِ الْمَكْفِيلَةِ فِي حَقْلِ عِفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ الْحِثِّيِّ الَّذِي أَمَامَ مَمْرَا)[1].

إذًا... مات النبي إبراهيم، ولم يتحقق العهد الذي قطعه الرب التوراتي له بامتلاك أرض كنعان.

ولاحظوا هذا القول: وانضم إلى قومه. فهو عندما مات دفنه ولداه إسحاق وإسماعيل ولكن التوراة تقول وانضم إلى قومه. فمن هم قوم إبراهيم وكيف يقول كاتب التوراة انضم إلى قومه؟

ثم تقول إن الذي دفنه ولداه إسماعيل وإسحاق. فأين الأولاد الستة أبناؤه من المرأة المسماة قطورة؟ ألا يعنيهم موت أبيهم؟ ثمّ كيف وصل إسماعيل من جبال فاران وحضر جنازة أبيه وشارك في دفنه؟ كل ذلك تصور خيالي من قبل كاتب التوراة.

ثمّ تقول التوراة عن إسماعيل عليه السلام: (وَأَسْلَمَ رُوحَهُ وَمَاتَ وَانْضَمّ إِلَى قَوْمِهِ)[2].

فمن هم قوم إسماعيل؟ أليس أباه وأمه وخالته وإخوته، ليس لإسماعيل قوم سواهم، ولكن إسماعيل مات في مكة ودفن بجانب الكعبة تحت الحجر المسمى حجر إسماعيل. وقبره ما زال إلى اليوم تحت هذا الحجر. فماذا بعد هذا الافتراء من افتراء وماذا بعد هذا الجهل من جهل؟

1 التكوين، الخامس والعشرون: 8–9.
2 التكوين، الخامس والعشرون: 17.

وتقول التوراة: (2 وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ [لإسحاق عليه السلام] وَقَالَ: "لاَ تَنْزِلْ إِلَى مِصْرَ. اسْكُنْ فِي الأَرْضِ الَّتِي أَقُولُ لَكَ. 3 تَغَرَّبْ فِي هذِهِ الأَرْضِ فَأَكُونَ مَعَكَ وَأُبَارِكَكَ، لأَنِّي لَكَ وَلِنَسْلِكَ أُعْطِي جَمِيعَ هذِهِ الْبِلاَدِ، وَأَفِي بِالْقَسَمِ الَّذِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ")[1].

فلماذا لم يحقق الله وعده مع إبراهيم ومات دون أن يمتلك الأرض؟ ثمّ سنرى أن هذا الوعد لن يتحقق أيضًا مع إسحاق. فلماذا ما زال كاتب التوراة مصرًا على التلفيق على الله جلّ جلاله؟

وتقول التوراة: (1 فَدَعَا إِسْحَاقُ يَعْقُوبَ... 4 وَيُعْطِيكَ بَرَكَةَ إِبْرَاهِيمَ لَكَ وَلِنَسْلِكَ مَعَكَ، لِتَرِثَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ الَّتِي أَعْطَاهَا اللهُ لإِبْرَاهِيمَ)[2].

مرة أخرى يفشل الوعد مع إسحق، فينتقل إلى يعقوب، عسى يتحقق، ولكنه لن يتحقق أيضًا مع يعقوب، وهذا ما نصت عليه التوراة نفسها.

ثم يأتي الرب إلى يعقوب في المنام ويقول له: (فَقَالَ: "أَنَا الرَّبُّ إِلهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ. الأَرْضُ الَّتِي أَنْتَ مُضْطَجِعٌ عَلَيْهَا أُعْطِيهَا لَكَ وَلِنَسْلِكَ")[3].

والواقع أننا كلما قرأنا هذا الوعد التوراتي نشفق على الموعودين، إبراهيم وإسحق ويعقوب، فكاتب التوراة ما يزال مصرًا على أن الله يَعِد ويكذب على عباده، وحاشا لله أن يكذب على عباده وأنبيائه، لكن كاتب التوراة لم يعرف ربه، ولن يعرفه ما دام هو في هذا الحس وهذا العقل المخرف.

وتقول التوراة: (وَسَكَنَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ غُرْبَةِ أَبِيهِ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ)[4].

ومرة بعد مرة تعترف التوراة على الرغم من الوعد الإلهي المقطوع لإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام بأن هذه الأرض أرض غربة لهم وليست أرضهم.

1 التكوين، السادس والعشرون: 2–3.
2 التكوين، الثامن والعشرون: 1 و4.
3 التكوين، الثامن والعشرون: 13.
4 التكوين، السابع والثلاثون: 1.

وهكذا، نرى أنه مات النبي إبراهيم والنبي إسحاق ثم مات يعقوب، وأولاد يعقوب الاثنا عشر ماتوا جميعًا في أرض مصر بما فيهم النبي يوسف. وقد استغرق الحديث عنهم معظم سفر التكوين، ولكن الوعد الإلهي لم يتحقق، ولم يمتلك هؤلاء الأرض التي زعموا أن الرب قد وعدهم بها.

إذًا، هذا الوعد وعد كاذب صنعه كاتب التوراة من خياله، علّ وعسى يتحقق في الأجيال القادمة لهؤلاء الإسرائيليين بعد أكثر من ألف سنة على رحيل النبي إبراهيم.

إنه بحق وعد مزعوم؛ لأن الله سبحانه كرم أنبياءه بفضائل جمة ما حصلت للبشر، إبراهيم عليه السلام اسم يلتصق ببناء الكعبة، وهذا هو أهم شيء في حياته، لكن هؤلاء كتبة التوراة يريدون أن يحرفوا الأحداث التاريخيّة عن مجراها، فلم يأتوا على ذكر البيت الحرام، وإنما جاؤوا بالوعد المزعوم؛ ليشغلوا عقول أتباعهم بعيدًا عن الدين الحق وعن ملة إبراهيم، فضاعوا، وتاهوا، وضلوا، وانحرفوا عن دين الآباء والأجداد أمثال النبي إبراهيم والنبي إسحاق وكذلك يعقوب والنبي إسماعيل عليهم السلام.

لقد شغلتهم تلك القصة، قصة لعنة نوح على ابنه وابن ابنه كنعان، اخترعوها في سنة 560 ق.م؛ ليحتدم الصراع ويستمر إلى يومنا هذا، لقد اخترعوا صراعًا إجراميًا منذ أن دونوا التوراة، فكم من وزر يتحمل كاتب هذه التوراة؟ الذي صنع بخياله ملاحم دمويّة بين الحق والباطل، الباطل الذي اخترعه وصدقه الآخرون.

الفصل الثاني

● فلسطين والقدس والتسرب الإسرائيلي الأول

بنو إسرائيل في سيناء:

ذكرت التوراة في سفر الخروج قصة الصراع بين النبي موسى عليه السلام وفرعون مصر، وفصلت في الحوار والجدال الذي دار بينهما، وكذلك المصائب التي حلت بفرعون وقومه.

وكذلك نجد قصة النبي موسى مع فرعون مبثوثة في القرآن الكريم، وفي أكثر من سورة قرآنية، ونرى قصة العبور في البحر والمعجزة التي أحدثها الله سبحانه عندما ضرب النبي موسى البحر بعصاه، ومن ثمّ نجاة بني إسرائيل إلى الطرف الشرقي من خليج السويس، ثمّ غرق فرعون وجنوده.

كل هذه التفاصيل نراها واضحة في نصوص القرآن الكريم ونصوص التوراة، وما يهمنا في هذه المرحلة هو البحث عن القدس وفلسطين لدى بني إسرائيل وهم في صحراء سيناء، والمرحلة التاريخية التي تؤرخ لهذه الأحداث تفترض علينا بعض الأسئلة حتى نستوضح ما كانت عليه أرض فلسطين ومدينة القدس.

س1: هل تتضح معالم الوعد التوراتي بتملك الأرض المباركة فلسطين؟

س2: ما هي الأوضاع التي كانت عليها فلسطين ومدينة القدس منذ دخول بني إسرائيل إلى سيناء وحتى تسربهم إلى بعض أجزاء فلسطين؟

س3: لماذا بقيت القدس صامدة بوجه التسرب الإسرائيلي الأول وبوجه غزوة شعوب البحر الإيجيين؟ (نسبة إلى بحر إيجه وسواحل اليونان)

تقول التوراة: (16 اِذْهَبْ وَاجْمَعْ شُيُوخَ إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمُ: الرَّبُّ إِلهُ آبَائِكُمْ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ظَهَرَ لِي قَائِلاً: إِنِّي قَدِ افْتَقَدْتُكُمْ وَمَا صُنِعَ بِكُمْ فِي مِصْرَ. 17 فَقُلْتُ أُصْعِدُكُمْ مِنْ مَذَلَّةِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً)[1].

1 سفر الخروج، الأصحاح الثالث: 16–17.

وتقول التوراة: (4 وَأَيْضًا أَقَمْتُ مَعَهُمْ عَهْدِي: أَنْ أُعْطِيَهُمْ أَرْضَ كَنْعَانَ أَرْضَ غُرْبَتِهِم الّتي تَغَرّبُوا فِيهَا. 5 وَأَنَا أَيْضًا قَدْ سَمِعْتُ أَنِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الّذِينَ يَسْتَعْبِدُهُمُ الْمِصْرِيُّونَ، وَتَذَكّرْتُ عَهْدِي. 6 لِذلِكَ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَا الرّبُّ. وَأَنَا أُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيّينَ وَأُنْقِذُكُمْ مِنْ عُبُودِيّتِهِمْ وَأُخَلّصُكُمْ بِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ وَبِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ، 7 وَأَتّخِذُكُمْ لِي شَعْبًا، وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهًا. فَتَعْلَمُونَ أَنّي أَنَا الرّبُّ إِلهُكُمُ الّذِي يُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيّينَ. 8 وَأُدْخِلُكُمْ إِلَى الأَرْضِ الّتي رَفَعْتُ يَدِي أَنْ أُعْطِيَهَا لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. وَأُعْطِيَكُمْ إِيّاهَا مِيرَاثًا)[1].

فمن الواضح أن كاتب التوراة يتدرج صعودًا بالوعد الإلهي المزعوم، حتى يصل في كلامه إلى يعقوب عليه السلام، بدأ وعده مع إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب. وقد رأينا أن هذا الوعد لم يتحقق مع النبي إبراهيم، ولا مع النبي إسحق ولا مع النبي يعقوب ولا مع يوسف ولا مع الأسباط.

ويمضي زمن طويل منذ وفاة النبي يوسف عليه السلام حتى ظهور النبي موسى عليه السلام، وهذا الوقت يتجاوز مئتين وثلاثين سنة، وما زال الوعد لم يتحقق على الرغم من مرور أكثر من خمسمئة سنة على وفاة النبي إبراهيم عليه السلام.

وحقيقة، أن بني إسرائيل عندما دخلوا مصر كان عددهم بضعة وسبعين رجلًا وامرأة وطفلًا ومكثوا هناك برعاية الهكسوس حتى استعاد الفراعنة شمال مصر، وطردوا الهكسوس وراحوا ينتقمون من بني إسرائيل بسبب تعاونهم مع الهكسوس.

وهذه المدة الطويلة التي مكثوا خلالها في مصر لم يُذكر أي شيء من وعد إلهي أو أي توجه للذهاب إلى فلسطين؛ لأنه لا علاقة بين هذه المجموعات الإسرائيلية وبين أرض فلسطين، ولو كانت هناك أيّ علاقة لعمل هؤلاء على تحقيق الوعد الإلهي كما يزعمون.

1 الخروج، السادس: 4–8.

ولكن، وكما تقول التوراة، إنهم كانوا يعيشون في مصر حول قدور اللحم والماء العذب، ويحتجون على النبي موسى عليه السلام؛ لأنه جلبهم إلى سيناء، وكادوا يقتلونه بسبب تمردهم عليه، وعلى الرغم من كل هذه الحيثيات يصر كاتب التوراة على القول بأن الله خاطب موسى عليه السلام، وقال له "قل لشيوخ بني إسرائيل إن الله سوف يدخلهم إلى أرض كنعان وتكون لهم ميراثًا"، والتي وردت في سفر الخروج (7 وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْبًا، وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهًا. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمُ الَّذِي يُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ. 8 وَأُدْخِلُكُمْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي رَفَعْتُ يَدِي أَنْ أُعْطِيَهَا لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. وَأُعْطِيَكُمْ إِيَّاهَا مِيرَاثًا).

فتركيب القصة - أي قصة الوعد- لا تغيب عن ذهن كاتب التوراة، باعتباره كان موجودًا مع المسبيين في بابل، ويتمنى أن يتحقق حلمه بعودة بني إسرائيل؛ لاحتلال الأرض المباركة فلسطين.

وينسب كاتب التوراة القول لله (أُعْطِيَهُمْ أَرْضَ كَنْعَانَ أَرْضَ غُرْبَتِهِم الَّتِي تَغَرَّبُوا فِيهَا) فكيف يمنحهم الله الأرض المباركة وهو نفسه يقول (أَرْضَ غُرْبَتِهِم الَّتِي تَغَرَّبُوا فِيهَا). وهذا يعني أن أرضهم ليست هذه الأرض، فلا يعقل أن يعدهم الله بأرض ليست لهم، ولا يوجد أسباب مقنعة حتى يتملك شخص أرضًا هي ليست من حقه.

ولننظر ماذا تقول التوراة: (11 وَيَكُونُ مَتَى أَدْخَلَكَ الرَّبُّ أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّينَ كَمَا حَلَفَ لَكَ)[1].

وهذا الخطاب موجه لموسى عليه السلام من قبل الرب كما تزعم التوراة، وإذا ناقشنا هذا القول على ضوء أقوال التوراة في نهاية سفر التثنية لوجدنا التناقض الصارخ والفاضح، فالتوراة تقول إن الأرض حرمت على بني إسرائيل وأن موسى لم يدخل أرض الكنعانيين؛ لأن الرب حرم عليه دخولها. فكيف يصح أن يقول الرب: متى أدخلك أرض كنعان ثمّ يقول إن الرب حرمها عليه وعلى قومه؟!

إذًا، نستنتج أن كاتب التوراة يعيش تناقضات ليس لها آخر، وهذا ما رأيناه فيما سبق وسنراه مستمرًا فيما يلحق من كلام.

1 الخروج، الثالث عشر: 11.

ويستوقفنا قول في التوراة في الأصحاح الخامس عشر، وهو حسب ما يقول كاتب التوراة ترنيمة أو تسبيحة سبحوها للرب يوم استطاعوا الهرب من فرعون ودخلوا سيناء: (11مَنْ مِثْلُكَ بَيْنَ الآلِهَةِ يَا رَبُّ؟ مَنْ مِثْلُكَ مُعْتَزًّا فِي الْقَدَاسَةِ، مَخُوفًا بِالتَّسَابِيحِ، صَانِعًا عَجَائِبَ؟ 12 تَمُدُّ يَمِينَكَ فَتَبْتَلِعُهُمُ الأَرْضُ. 13تُرْشِدُ بِرَأْفَتِكَ الشَّعْبَ الَّذِي فَدَيْتَهُ. تَهْدِيهِ بِقُوَّتِكَ إِلَى مَسْكَنِ قُدْسِكَ. 14 يَسْمَعُ الشُّعُوبُ فَيَرْتَعِدُونَ. تَأْخُذُ الرَّعْدَةُ سُكَّانَ فِلِسْطِينَ. 15حِينَئِذٍ يَنْدَهِشُ أُمَرَاءُ أَدُومَ. أَقْوِيَاءُ مُوآبَ تَأْخُذُهُمُ الرِّجْفَةُ. يَذُوبُ جَمِيعُ سُكَّانِ كَنْعَانَ. 16 تَقَعُ عَلَيْهِمِ الْهَيْبَةُ وَالرُّعْبُ. بِعَظَمَةِ ذِرَاعِكَ يَصْمُتُونَ كَالْحَجَرِ حَتَّى يَعْبُرَ شَعْبُكَ يَا رَبُّ)[1].

فهذا النص كما هو واضح يدل على أمنية وحلم كان يحلم به كاتب التوراة، وهذا النص من تأليفه ولم يكن لا تسبيحة ولا ترنيمة.

والشيء الفاضح فيه كثير؛ فنراه يقول: (تَهْدِيهِ بِقُوَّتِكَ إِلَى مَسْكَنِ قُدْسِكَ) فما المقصود بكلمة مسكن قدسك؟ بالطبع المقصود به بيت الرب في القدس. فهل كان لدى بني إسرائيل معرفة بهذا المسكن؟ ثمّ أين مسكن القدس المقدس إذا كان غير موجود على وجه الأرض؟ ومن الواضح أن الكاتب أيام السبي البابلي كان يأمل أن يعاد احتلال أرض كنعان ويقام ما يسمى "الهيكل".

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يقول تأخذ الرعدة سكان فلسطين، فهل كانت أرض كنعان تسمى فلسطين في زمن النبي موسى؟ ثم يقول جميع سكان كنعان، فما معنى ذلك وهو في نفس الوقت يقول سكان فلسطين. هل سكان فلسطين غير سكان كنعان؟

إن ذلك يدل على أن الكاتب الذي ألف هذا النص جاء في وقت متأخر جدًا عن عصر موسى؛ لأنه أورد اسم سكان فلسطين، وفلسطين لم تسم بهذا الاسم إلا بعد الغزوة التي جاءت من البحر، وهي غزوة شعوب البلستة التي أخذت أرض كنعان اسم فلسطين منها.

ويبدو أن كل ما يطرحه كاتب التوراة عن الوعد الإلهي يصب في الأمنيات والأحلام، وهو حسب المنطق التاريخي لا يعبر إلا عن جهل بحقائق الأحداث التاريخية وتسلسلها.

1 الخروج، الخامس عشر: 11–16.

وتقول التوراة: (2 فَتَذَمَّرَ كُلُّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ فِي الْبَرِّيَّةِ. 3 وَقَالَ لَهُمَا بَنُو إِسْرَائِيلَ: "لَيْتَنَا مُتْنَا بِيَدِ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مِصْرَ، إِذْ كُنَّا جَالِسِينَ عِنْدَ قُدُورِ اللَّحْمِ نَأْكُلُ خُبْزًا لِلشِّبَعِ. فَإِنَّكُمَا أَخْرَجْتُمَانَا إِلَى هذَا الْقَفْرِ لِكَيْ تُمِيتَا كُلَّ هذَا الْجُمْهُورِ بِالْجُوعِ")[1].

إذًا، هذا هو حال بني إسرائيل، فأين الوعد الإلهي المزعوم، كل محاولات النبي موسى لا تنجح لأن هؤلاء كانوا مقتنعين بأن حياتهم يجب أن تكون عند أسيادهم من المصريين لا أن يأخذهم النبي موسى عليه السلام إلى هذه الصحراء وهذا الفقر والجوع والعطش.

وتقول التوراة: (35 وَأَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْمَنَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً حَتَّى جَاءُوا إِلَى أَرْضٍ عَامِرَةٍ. أَكَلُوا الْمَنَّ حَتَّى جَاءُوا إِلَى طَرَفِ أَرْضِ كَنْعَانَ)[2].

إذًا، لقد مكثوا الفترة الأولى وهي أربعين سنة حتى جاؤوا إلى أرض عامرة أكلوا المن حتى جاؤوا إلى طرف أرض كنعان.

إذًا، لقد مكثوا الفترة الأولى وهي أربعين سنة في سيناء ولكن لم يتحقق الوعد المزعوم، ولم يدخلوا أرض كنعان. بل كانوا يحومون حول حدودها محصورين في سيناء لا يغادرونها.

ومرة أخرى يقول جماعة بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ("لِمَاذَا أَصْعَدْتَنَا مِنْ مِصْرَ لِتُمِيتَنَا وَأَوْلاَدَنَا وَمَوَاشِيَنَا بِالْعَطَشِ؟" 4فَصَرَخَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ قَائِلاً: "مَاذَا أَفْعَلُ بِهذَا الشَّعْبِ؟ بَعْدَ قَلِيل يَرْجُمُونَنِي")[3].

مرة أخرى نقول: لو كان هناك وعد إلهي وآمن به هؤلاء لما تذمروا ولما تآمروا على قتل النبي موسى عليه السلام. لكن يبدو أنه لم يكن هناك وعد، وليس لبني إسرائيل ذرة من إيمان بالرب أو بوعده.

والأمر العجيب أن الله كما يقول كاتب التوراة وعد بني إسرائيل بتملكهم لأرض كنعان وفي الوقت نفسه يقول الرب لموسى: (9 وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: "رَأَيْتُ هذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ

1 الخروج، السادس عشر: 2–3.
2 الخروج، السادس عشر: 35.
3 الخروج، السابع عشر: 3–4.

صُلْبُ الرَّقَبَةِ. 10 فَالآنَ اتْرُكْنِي لِيَحْمَى غَضَبِي عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ")[1].

والأغرب من ذلك أن موسى يقول لربه: (ارْجِعْ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِكَ، وَانْدَمْ عَلَى الشَّرِّ بِشَعْبِكَ)[2].

فكيف حال الوعد مع حال الرب وهو غاضب، ويريد أن يمحو من الوجود هؤلاء الضالين من بني إسرائيل، ثم هل يليق بنبي أن يقول لربه (وَانْدَمْ عَلَى الشَّرِّ بِشَعْبِكَ)؟

وبعد هذا الغضب وهذا التهديد يعاود الرب الحديث عن وعده فيقول: (1وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: "اذْهَبِ اصْعَدْ مِنْ هُنَا أَنْتَ وَالشَّعْبُ الَّذِي أَصْعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي حَلَفْتُ لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ قَائِلاً: لِنَسْلِكَ أُعْطِيهَا. 2 وَأَنَا أُرْسِلُ أَمَامَكَ مَلاَكًا، وَأَطْرُدُ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ. 3إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً)[3].

فنلاحظ أن الرب التوراتي يندم على الشر الذي كان ينويه لبني إسرائيل، ويعاود الحديث عن وعده فيُطمع بني إسرائيل بالإغراءات المادية، حيث يقول عن أرض كنعان إنها تفيض لبنًا وعسلًا. ومن الطبيعي أنه يحاول أو يحفزهم على القدوم كي يتخلصوا من شظف الصحراء التي مكثوا في ظلالها عشرات السنين.

وينتهي سفر الخروج ولم يتحقق الوعد، فماذا يفعل بنو إسرائيل وماذا يفعل النبي موسى عليه السلام معهم؟

ويمر سفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية ولم يتحقق الوعد.

والآن لننظر كيف انتهى سفر التثنية مع نهاية النبي موسى عليه السلام فهو أجدر بالوقفة الطويلة والنقاش المنديد.

(1 وَصَعِدَ مُوسَى مِنْ عَرَبَاتِ مُوآبَ إِلَى جَبَلِ نَبُو، إِلَى رَأْسِ الْفِسْجَةِ الَّذِي قُبَالَةَ أَرِيحَا، فَأَرَاهُ الرَّبُّ جَمِيعَ الأَرْضِ مِنْ جِلْعَادَ إِلَى دَانَ، 2 وَجَمِيعَ نَفْتَالِي وَأَرْضَ أَفْرَايِمَ وَمَنَسَّى، وَجَمِيعَ أَرْضِ

1 الخروج، الثاني والثلاثون: 9–10.
2 الخروج، الثاني والثلاثون: 12.
3 الخروج، الثالث والثلاثون: 1-3.

يَهُوذَا إِلَى الْبَحْرِ الْغَرْبِيِّ، 3 وَالْجَنُوبَ وَالدَّائِرَةَ بُقْعَةَ أَرِيحَا مَدِينَةِ النَّخْلِ، إِلَى صُوغَرَ. 4 وَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: "هذِهِ هِيَ الأَرْضُ الَّتِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ قَائِلاً: لِنَسْلِكَ أُعْطِيهَا. قَدْ أَرَيْتُكَ إِيَّاهَا بِعَيْنَيْكَ، وَلكِنَّكَ إِلَى هُنَاكَ لاَ تَعْبُرُ". 5 فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. 6 وَدَفَنَهُ فِي الْجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هذَا الْيَوْمِ)[1].

نلاحظ أولًا إن بني إسرائيل توقفوا عند أرض موآب مقابل مدينة أريحا وتقول التوراة إن الله أرى موسى أرض كنعان كلها من مشرقها إلى مغربها ومن جنوبها إلى شمالها.

فلننظر أن كاتب التوراة أطلق أسماء عبرانية على مناطق فلسطينية كانت أسماؤها غير الأسماء التي أوردها الكاتب، فجاء اسم جلعاد ودان ونفتالي وأرض افرايم ومنسّى وأرض يهودا، وهذه الأسماء لم يتداولها الإسرائيليون إلا بعد موسى وبعد أن اكتمل التسرب الإسرائيلي إلى بعض أجزاء فلسطين.

ولكن الأخطر من ذلك أن الذي يُري موسى عليه السلام هذه الأرض كلها يقول له تراها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر . ومات موسى دون أن يعبر إلى أرض الوعد الإلهي!!

لماذا؟ لا ندري... إلا أمرًا واحدًا أن هذا الوعد مزعوم، وأن كاتب التوراة اخترعه، ولكنه واجه حقائق التاريخ، فأجّل الدخول إلى أرض كنعان حتى يأتي يشوع قائدًا لبني إسرائيل ويدخل هذه الأض كما تقول التوراة.

ولكن السؤال المطروح هنا لماذا لم يأت كاتب التوراة على ذكر القدس كونها مدينة مقدسة؟ الواقع لأن بني إسرائيل لما تسربوا إلى فلسطين، لم يستطيعوا الدخول إلى مدينة القدس، ولا يتجرؤوا على اقتحامها؛ لأن فيها شعب اليبوسيين الذين دافعوا عنها وحافظوا عليها من التسرب اليهودي.

1 سفر التثنية، الأصحاح الرابع والثلاثون: 1-6.

التسرب الإسرائيلي الأول إلى فلسطين:

توقف بنو إسرائيل بعد موت النبي موسى عليه السلام على حدود فلسطين من جهة مؤأب؛ أي في جنوب أريحا من جهة الأردن. وهنا يبدأ فصل جديد من حياة هؤلاء الإسرائيليين أرادت التوراة المحرفة أن تعطيه بعدًا أسطوريًا ملحميًا، فكتب سفر يشوع الذي يعدّ من أكثر الأسفار خيالية وكذبًا. وقد أراد مؤلف هذه التوراة أن يحقق الوعد الذي بدأ من زمن النبي إبراهيم ولم ينفذ لا في زمنه ولا في زمن أبنائه وأحفاده، حتى جاء يشوع لينفذه.

(فَالآنَ قُمْ اعْبُرْ هذَا الأُرْدُنَّ أَنْتَ وَكُلُّ هذَا الشَّعْبِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنَا مُعْطِيهَا لَهُمْ أَيْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. 3 كُلَّ مَوْضِعٍ تَدُوسُهُ بُطُونُ أَقْدَامِكُمْ لَكُمْ أَعْطَيْتُهُ، كَمَا كَلَّمْتُ مُوسَى. 4مِنَ الْبَرِّيَّةِ وَلُبْنَانَ هذَا إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ نَهْرِ الْفُرَاتِ، جَمِيعِ أَرْضِ الْحِثِّيِّينَ، وَإِلَى الْبَحْرِ الْكَبِيرِ نَحْوَ مَغْرِبِ الشَّمْسِ يَكُونُ تُخْمُكُمْ)[1].

سنلاحظ أن الوعد الآن هو في صورة متقدمة؛ فالأرض الموعودة باتت لا تقتصر على فلسطين، إنما شملت كل أرض تدوسها أقدام بني إسرائيل، حتى يصل إلى نهر الفرات؛ فالوعد يشمل فلسطين ولبنان وسورية وسيناء وجزءًا من أرض العراق، ويصل إلى مغرب الشمس خلف البحر الكبير أي المتوسط.

وكما قلنا سابقًا فإن حلم كاتب التوراة أسقط على الوعد الإلهي المزعوم، فتضخم حتى شمل هذا الأرض كلها.

ومن الملاحظ أن في هذا الكلام تقسيمًا مسبقًا للأرض على أسباط إسرائيل، على الرغم من أنه لم يأت على ذكر القدس مدينة اليبوسيين.

وتبدأ حملة يشوع من أريحا حسب زعم كاتب التوراة، حيث تقوم زانية اسمها راحاب باستقبال جاسوسين من بني إسرائيل، وقد أخبرتهما عن الأمكنة الضعيفة في أسوار أريحا ثم غادرا إلى يشوع.

1 يشوع، الأول: 2-4.

ثم تقول التوراة إن يشوع دمر أسوار أريحا بقدرة الرب، ولكنه يجري مذبحة كبيرة حسب ما تصف التوراة فتقول: (21 وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُل وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْل وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ)[1].

ثم تقول التوراة إن بني إسرائيل أحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها.

ولنلاحظ ماذا كان رد يشوع عند هزيمة بني إسرائيل أمام رجال مدينة عاي (7 وَقَالَ يَشُوعُ: "آهِ يَا سَيِّدُ الرَّبُّ! لِمَاذَا عَبَّرْتَ هذَا الشَّعْبَ الأُرْدُنَّ تَعْبِيرًا لِكَيْ تَدْفَعَنَا إِلَى يَدِ الأَمُورِيِّينَ لِيُبِيدُونَا؟ لَيْتَنَا ارْتَضَيْنَا وَسَكَنَّا فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ")[2].

وتستمر المخيلة التوراتية في وصف "الفتوحات" التي قادها يشوع، وإذا حصرنا أسماء المدن والقرى التي هاجمها نجدها أكثر من ثلاثين قرية ومدينة؛ مثل عجلون وحبرون وعاي ومقيدة ودبير وجبعون وجوشن وحاصور. وتقول التوراة (22 فَلَمْ يَتَبَقَّ عَنَاقِيُّونَ فِي أَرْضِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لكِنْ بَقُوا فِي غَزَّةَ وَجَتَّ وَأَشْدُودَ)[3]، نلاحظ من هذه اللحظة أن كاتب التوراة صار يطلق على بعض أراضي فلسطين أرض بني إسرائيل.

وتقول التوراة: (وَأَعْطَاهَا يَشُوعُ لأَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ مِيرَاثًا حَسَبَ فِرَقِهِمْ)[4].

وترى التوراة أن يشوع قسم أرض فلسطين على أسباط بني إسرائيل، ولكن أين ذهب أهل فلسطين؟ هل شردوا خارج أراضيهم؟ أم أبيدوا في حرب قام بها يشوع وأتباعه؟

تقول التوراة: (13 وَأَعْطَيْتُكُمْ أَرْضًا لَمْ تَتْعَبُوا عَلَيْهَا، وَمُدُنًا لَمْ تَبْنُوهَا وَتَسْكُنُونَ بِهَا، وَمِنْ كُرُومٍ وَزَيْتُونٍ لَمْ تَغْرِسُوهَا تَأْكُلُونَ)[5].

إذًا، كيف يصح وبأي منطق أن يمنحهم ربهم أرضًا لم يتعبوا عليها ومدنًا لم يبنوها وكرومًا وزيتونًا لم يزرعوها؟!!

1 يشوع، السادس: 21.
2 يشوع، السابع: 7.
3 يشوع، الحادي عشر: 22.
4 يشوع، الثاني عشر: 7.
5 يشوع، الرابع والعشرون: 13.

وتقول التوراة: (8 وَحَارَبَ بَنُو يَهُوذَا أُورُشَلِيمَ وَأَخَذُوهَا وَضَرَبُوهَا بِحَدِّ السَّيْفِ، وَأَشْعَلُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ. 9 وَبَعْدَ ذلِكَ نَزَلَ بَنُو يَهُوذَا لِمُحَارَبَةِ الْكَنْعَانِيِّينَ سُكَّانِ الْجَبَلِ وَالْجَنُوبِ وَالسَّهْلِ)[1].

ويبدو أن يشوع الذي وزّع أرض الفلسطينيين التي تدعى التوراة أنه احتلها على الأسباط، لم يستطع القضاء على سكانها، فها هو سفر القضاة يكرر قصة الصراع بين أسباط إسرائيل والشعب العربي الكنعاني.

ولكن شعب فلسطين بقي في مدنه وأراضيه كما تنص التوراة، ويظهر جليًا أن سفر يشوع الذي اخترع ملحمة ومذبحة ليس إلا وهمًا وتخيلًا، إنما الذي جرى هو أن بني إسرائيل تسربوا إلى أرض فلسطين خلسة وسكنوا بين أهلها.

تقول التوراة: (27 وَلَمْ يَطْرُدْ مَنَسَّى أَهْلَ بَيْتِ شَانَ وَقُرَاهَا، وَلاَ أَهْلَ تَعْنَكَ وَقُرَاهَا، وَلاَ سُكَّانَ دُورَ وَقُرَاهَا، وَلاَ سُكَّانَ يِبْلَعَامَ وَقُرَاهَا، وَلاَ سُكَّانَ مَجِدُّو وَقُرَاهَا. فَعَزَمَ الْكَنْعَانِيُّونَ عَلَى السَّكَنِ فِي تِلْكَ الأَرْضِ)[2].

وتقول التوراة: (29 وَأَفْرَايِمُ لَمْ يَطْرُدِ الْكَنْعَانِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي جَازَرَ، فَسَكَنَ الْكَنْعَانِيُّونَ فِي وَسَطِهِ فِي جَازَرَ. 30 زَبُولُونُ لَمْ يَطْرُدْ سُكَّانَ قِطْرُونَ، وَلاَ سُكَّانَ نَهْلُولَ، فَسَكَنَ الْكَنْعَانِيُّونَ فِي وَسَطِهِ وَكَانُوا تَحْتَ الْجِزْيَةِ. 31 وَلَمْ يَطْرُدْ أَشِيرُ سُكَّانَ عَكُّو، وَلاَ سُكَّانَ صَيْدُونَ وَأَحْلَبَ وَأَكْزِيبَ وَحَلْبَةَ وَأَفِيقَ وَرَحُوبَ. 32 فَسَكَنَ الأَشِيرِيُّونَ فِي وَسَطِ الْكَنْعَانِيِّينَ سُكَّانِ الأَرْضِ)[3]. (33 وَنَفْتَالِي لَمْ يَطْرُدْ سُكَّانَ بَيْتِ شَمْسٍ، وَلاَ سُكَّانَ بَيْتِ عَنَاةَ، بَلْ سَكَنَ فِي وَسَطِ الْكَنْعَانِيِّينَ سُكَّانِ الأَرْضِ)[4].

ومن الواضح أن كاتب التوراة الذي ذكر في سفر يشوع أن الإسرائيليين أبادوا شعب تلك الأراضي، يذكر كلامًا يناقضه في سفر القضاة؛ فهذا السفر يقرّ بأن الأرض فيها أصحابها وجاء بعبارة (سُكَّانِ الأَرْضِ) دليلًا على ذلك. واعترف بأن أسباط بني إسرائيل سكنوا في

1 سفر القضاة، الأصحاح الأول: 8-9.
2 القضاة، الأول: 27.
3 القضاة، الأول: 29-32.
4 القضاة، الأول: 33.

وسط سكان البلاد الأصليين. وهذا يعني أنهم تسربوا إلى الأرض، وما جاء في سفر يشوع ليس سوى قصة خيالية صنعها كاتب التوراة.

يقول باروخ سبينوزا: "سنبرهن لأسباب مماثلة أن سفر يشوع ليس من وضع يشوع، وتتلخص هذه الأسباب في أن شخصًا يشهد ليشوع في السفر المنسوب إليه بأن شهرته طبقت آفاق الأرض؛ فقد ورد في السفر المذكور (27 وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يَشُوعَ، وَكَانَ خَبَرُهُ فِي جَمِيعِ الأَرْضِ)[1] كما شهد له بأنه لم يفعل شيئًا مما أوصى به موسى، لم تكن كلمة من كل ما أمر به موسى لم يناد بها يشوع بحضرة جماعة إسرائيل".

ثم جاء في التوراة: (1 وَجَمَعَ يَشُوعُ جَمِيعَ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ...، 2 وَقَالَ يَشُوعُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ...، 24 فَقَالَ الشَّعْبُ لِيَشُوعَ... 26 وَكَتَبَ يَشُوعُ هذَا الْكَلاَمَ فِي سِفْرِ شَرِيعَةِ اللهِ... 29 وَكَانَ بَعْدَ هذَا الْكَلاَمِ أَنَّهُ مَاتَ يَشُوعُ بْنُ نُونٍ عَبْدُ الرَّبِّ ابْنَ مِئَةٍ وَعَشْرِ سِنِينَ. 30 فَدَفَنُوهُ فِي تُخُمِ مُلْكِهِ)[2] وهذا يدل على أن هذا السفر كتب بعد يشوع بقرون عديدة[3].

ويعلق سبينوزا على سفر القضاة: "بأنه ليس أفضل سندًا من سابقه؛ فهو لا يظن أن شخصًا سليم العقل يعتقد أن القضاة أنفسهم قد كتبوه؛ لأن نهاية الرواية تكشف بوضوح أن مؤرخًا واحدًا هو الذي كتبه كله من أوله إلى آخره".

ولكي يبرر كاتب التوراة فشل الإسرائيليين في احتلال الأرض، وتمكنهم راح يكيل لهم الذم بأنهم انحازوا عن طريق الرب.

والأمر المدهش أنه يقول في كل صفحات سفر القضاة أنهم لم يتركوا آلهة وثنية إلا وعبدوها وتركوا وصايا النبي موسى خلف ظهروهم.

يقول: (وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم وتركوا الرب إله آبائهم وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب وتركوا الرب

1 يشوع، السادس: 27.
2 يشوع، الرابع والعشرون.
3 باروخ سبينوزا، ص 273–274.

وعبدوا البعل وعشتاروت. فحمي غضب الرب على إسرائيل فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم وباعهم بأيدي أعدائهم حولهم) القضاة: 2: 11-14.

وتقول التوراة مرة أخرى مؤكدة أن شعب أرض كنعان ظلوا فيه وأن بني إسرائيل سكنوا عندهم: (5 فَسَكَنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، 6 وَاتَّخَذُوا بَنَاتِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً، وَأَعْطُوا بَنَاتِهِمْ لِبَنِيهِمْ وَعَبَدُوا آلِهَتَهُمْ)[1].

ماذا يعني هذا النص: لقد انقلب كاتب التوراة على ذاته؛ فالأمجاد والملاحم التي صنعها في سفر يشوع ذابت بسرعة خيالية، فإذا ببني إسرائيل يسكنون بين سكان الأرض من يبوسيين وغيرهم، وإذا ببني إسرائيل يتزاوجون مع شعوب الأرض، فيأخذون من بناتهم ويزوجون أولادهم من بنات من بني إسرائيل.

إن هذا النص يؤكد امتصاص غزوة وتسرب بني إسرائيل نهائيًا؛ فبعد أن تاهوا في سيناء عشرات السنين، إذا بهم يجدون الملجأ في أرض كنعان كما وجد آباؤهم الأولون الذي يدعون الانتساب إليهم.

ولكن "الرب التوراتي" لا يريد هذا الانفتاح ولا يريد هذا التحضر، إنما يريد أن يكون هؤلاء عنصريين لهم رب خاص، ولهم طقوس خاصة وعليهم أن لا يختلطوا بالشعوب الأخرى.

ومع ذلك، ما الذي جرى لمدينة القدس في كل هذه الأحداث؟

الواقع أن كاتب التوراة أشار مرة إلى أن جماعة يشوع - وهم من سبط يهودا - هاجموا أورشليم وأحرقوها، وهذا ادعاء كاذب، وتخيل فاضح؛ لأننا نرى أنه في زمن داود عليه السلام. والفرق بين الوقتين ليس بعيدًا جاء إلى اليبوسيين ليدخل مدينة القدس فرفضوا. فذهب حسب قول التوراة فاشترى بيدرًا من عند أرونا اليبوسي، وبنى هناك قصرًا ومسجدًا؛ ليتعبدوا فيه.

1 القضاة، الثالث: 5-6.

على أيّ حال فإن التسرب الإسرائيلي - وكما تثبت الدراسات - كان تسربًا سريًا، وما قاله كاتب التوراة في سفر يشوع ليس إلا محض خيال، أراد من ورائه أن يضخم، ويهول قوة هؤلاء الإسرائيليين بقيادة يشوع، ولكنه وقع في مطب ما كان يحسب نتائجه عندما أورد أن هؤلاء انخرطوا مع شعب البلاد، ولم يحافظوا على دينهم الخاص أو حتى على عرقهم، أما القدس فظلت بمنأى عن الاحتلال، وبمنأى عن التسرب، ولم يدخلها أي من هؤلاء الإسرائيليين في هذا التسرب الأول.

الفصل الثالث

- داود وسليمان عليهما السلام
- بين الكفر الإسرائيلي والانتساب المزيف

وعندما جاء التسرب الإسرائيلي من صحراء سيناء، كان عبارة عن تسرب قبائل وهذه القبائل سميت أسباط بني إسرائيل، ولم تعرف سوى الصحراء ولم تخالط أيًا من الشعوب المتحضرة في جوار سيناء. وعلى الرغم من أن النبي موسى عليه السلام عاش بينهم يعلمهم عقيدة التوحيد إلا أنهم وبعد موته انحازوا إلى عبادات أخرى مثل عبادة العجل وأصنام القبائل الأخرى وتسربوا إلى بعض النواحي من فلسطين. وكما قال سفر القضاة سكنوا في وسط الكنعانيين وصاهروهم وعبدوا آلهتهم.

وهنا لا بد أن نقول: من الطبيعي جدًا، أن يتأثر بنو إسرائيل بحضارة الكنعانيين؛ لأنهم في الأساس قبائل رعوية متنقلة، لم يعرفوا الاستقرار ولا الحضارة؛ لذلك وجدناهم يقلدون أصحاب الأرض بمعتقداتهم وحياتهم السياسية والاجتماعية. ومن الطبيعي أن الثابت في المكان يؤثر في الضيف الطارئ، والقوي عقديًّا وحضاريًا يؤثر بالضعيف والمتخلف.

فعلى المستوى الديني نرى بني إسرائيل تركوا دينهم، واتبعوا ديانة أهل فلسطين، وقد أشارت التوراة مرات عديدة إلى ذلك في أسفار عديدة أيضًا.

تقول التوراة:

1- وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ وَعَبَدُوا الْبَعْلِيمَ.

2- وَسَارُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ، وَسَجَدُوا لَهَا.

3- تَرَكُوا الرَّبَّ وَعَبَدُوا الْبَعْلَ وَعَشْتَارُوثَ.

4- وَلِقُضَاتِهِمْ أَيْضًا لَمْ يَسْمَعُوا، بَلْ زَنَوْا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى وَسَجَدُوا لَهَا.

5- فَعَبَدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عِجْلُونَ مَلِكَ مُوآبَ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً.

6- وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِ جِدْعُونَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجَعُوا وَزَنَوْا وَرَاءَ الْبَعْلِيمِ، وَجَعَلُوا لَهُمْ بَعَلَ بَرِيثَ إِلهًا... وَعَبَدُوا الْبَعْلِيمَ وَالْعَشْتَارُوثَ وَآلِهَةَ أَرَامَ وَآلِهَةَ صِيدُونَ وَآلِهَةَ مُوآبَ وَآلِهَةَ بَنِي عَمُّونَ وَآلِهَةَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، وَتَرَكُوا الرَّبَّ وَلَمْ يَعْبُدُوهُ.

وهذا كله وارد في سفر القضاة ونجد مثله كثيرًا في الأسفار الأخرى.

أما من الناحية السياسية فقد عرف بنو إسرائيل من شعب الأرض قضية تنصيب الملوك، فقد كانوا لا يعرفون ذلك فيما قبل، فصار بعض أسباطهم يدعون ليتوج عليهم ملك مثل ما للشعب الكنعاني:

1- (1 وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ حِينَ لَمْ يَكُنْ مَلِكٌ فِي إِسْرَائِيلَ)[1].

2- (1 وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ لَمْ يَكُنْ مَلِكٌ فِي إِسْرَائِيلَ، وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ كَانَ سِبْطُ الدّانِيِّينَ يَطْلُبُ لَهُ مُلْكًا لِلسُّكْنَى)[2].

ومن الناحية الاجتماعية، فقد قالت التوراة إن بني إسرائيل راحوا يزرعون الأرض، ويحصدون، ونحن نعلم أن بني إسرائيل عندما تسربوا إلى فلسطين كانوا لا يعرفون أي نوع من أنواع الزراعة فهم أبناء صحراء سيناء يعيشون في خيام، ويقودهم الأنبياء إلى ديانة التوحيد.

هل خضعت القدس لحكم داود التوراتي؟ أم تكاتفت مع حكم داود النبي المسلم؟

هنا نصل إلى مفصل مهم من مفاصل حياة بني إسرائيل، حيث يحاول الإسرائيليون التماهي مع شخصية النبي داود؛ كونه الملك الذي أقام مملكة لأسباط بني إسرائيل، ضمت حسب زعم كاتب التوراة جلَّ مناطق فلسطين.

وقبل الشروع في الحديث عن علاقة النبي داود بالقدس، لا بد أن نشير إلى عدة نقاط يجب ألا تغيب عن أذهاننا:

1- أن اسم داود ليس اسمًا عبرانيًا؛ فلا يوجد هذا الاسم في بني إسرائيل قبل ظهور النبي داود، وداود اسم عربي معناه (ذَا ٱلْأَيْدِ)؛ أي المؤيد من الله.

1 سفر القضاة 18-1
2 سفر القضاة 17-1

2- إذا كان القانون اليهودي يقول إن اليهودي من كانت أمه يهودية؛ فالتوراة تشير إلى أن جدة داود المسماة "راعوث" كانت مؤابية؛ فمعناه أن أباه ليس يهوديًا، وهذا يلحق به ويلحق بمن بعده حتى الجيل السابع حسب النص التوراتي.

3- أن بني إسرائيل تآمروا على داود منذ أن كان شاؤول ملكًا، وتآمروا عليه عندما كان ملكًا، والذين تآمروا عليه هم ابنه أبشالوم ورجل لئيم اسمه شبع بن بكري، والتجأ إلى دمشق واستعان بملكها لكي يسترد ملكه.

4- وقد أورد القرآن الكريم أن داود لعن الذين كفروا من بني إسرائيل، فقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾[1].

5- أوصى داود لابنه سليمان دون إخوته؛ ليرثه، على الرغم من أن التوراة تقول: (كان لداود سبعة عشر ولدًا وأم سليمان هي بتشبع الحثية وهي ليست من بني إسرائيل).

6- حكم النبي داود بين الناس بالعدل، فلم يفرق بين إسرائيلي وكنعاني أو غيرهم وهذا ما نص عليه القرآن الكريم.

7- لم يورد القرآن الكريم مملكة داود وحدودها، ولم يورد أنه كان يقيم في القدس؛ لأن القرآن الكريم ركز على النبوة والدعوة، ولا يركز على الملك المادي.

8- اتهمت التوراة النبي داود بالزنى والفحش والاعتداء على النساء، وحاشا لنبي أن يفعل مثل ما قالت نصوص التوراة.

6- كانت علاقة داود ببني إسرائيل علاقة سيئة؛ فالتوراة تقول: (5 وَلَمَّا جَاءَ الْمَلِكُ دَاوُدُ إِلَى بَحُورِيمَ إِذَا بِرَجُل خَارِجٍ مِنْ هُنَاكَ مِنْ عَشِيرَةِ بَيْتِ شَاوُلَ، اسْمُهُ شِمْعِي بْنُ جِيرَا، يَسُبُّ وَهُوَ يَخْرُجُ، 6 وَيَرْشُقُ بِالْحِجَارَةِ دَاوُدَ وَجَمِيعَ عَبِيدِ الْمَلِكِ دَاوُدَ وَجَمِيعُ الشَّعْبِ وَجَمِيعُ الْجَبَابِرَةِ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ. 7 وَهكَذَا كَانَ شِمْعِي يَقُولُ فِي سَبِّهِ: "اخْرُجِ! اخْرُجْ يَا رَجُلَ الدِّمَاءِ وَرَجُلَ بَلِيَّعَالَ! 8 قَدْ رَدَّ الرَّبُّ عَلَيْكَ كُلَّ دِمَاءِ بَيْتِ شَاوُلَ")[2].

1 المائدة 78.
2 سفر صموئيل الثاني، الأصحاح السادس عشر: 5-8.

وتقول التوراة: (13 فَأَتَى مُخَبِّرٌ إِلَى دَاوُدَ قَائِلاً: "إِنَّ قُلُوبَ رِجَالِ إِسْرَائِيلَ صَارَتْ وَرَاءَ أَبْشَالُومَ". 14 فَقَالَ دَاوُدُ لِجَمِيعِ عَبِيدِهِ الَّذِينَ مَعَهُ فِي أُورُشَلِيمَ: "قُومُوا بِنَا نَهْرُبُ، لأَنَّهُ لَيْسَ لَنَا نَجَاةٌ مِنْ وَجْهِ أَبْشَالُومَ")[1].

كيف دخل النبي داود مدينة القدس؟

تقول التوراة: (3 وَجَاءَ جَمِيعُ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ إِلَى الْمَلِكِ، إِلَى حَبْرُونَ، فَقَطَعَ الْمَلِكُ دَاوُدُ مَعَهُمْ عَهْدًا فِي حَبْرُونَ أَمَامَ الرَّبِّ. وَمَسَحُوا دَاوُدَ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ)[2].

وتبدأ قصة ملك داود حسب التوراة عندما تقول: (6 وَذَهَبَ الْمَلِكُ وَرِجَالُهُ إِلَى أُورُشَلِيمَ، إِلَى الْيَبُوسِيِّينَ سُكَّانِ الأَرْضِ. فَكَلَّمُوا دَاوُدَ قَائِلِينَ: «لاَ تَدْخُلْ إِلَى هُنَا، مَا لَمْ تَنْزِعِ الْعُمْيَانَ وَالْعُرْجَ». أَيْ لاَ يَدْخُلُ دَاوُدُ إِلَى هُنَا. 7 وَأَخَذَ دَاوُدُ حِصْنَ صِهْيَوْنَ، هِيَ مَدِينَةُ دَاوُدَ)[3].

فمنذ البداية يتضح لنا أن العرب اليبوسيين ما زالوا موجودين في مدينتهم، لم يغادروا على الرغم من الحروب التي تعرضت لها. والتوراة تصفهم بسكان الأرض، وهذه هي الحقيقة أما هؤلاء الإسرائيليون فهم طارئون.

وتورد التوراة أن داود حكم القدس ثلاثًا وثلاثين سنة، ولكن السؤال المطروح هو أين ذهب سكان المدينة؟

المصادر كلها - وحتى التوراة - تشير إلى بقاء أهل القدس في مدينتهم، وتبين أن قصر الملك داود الذي بناه في ظاهر القدس هو من الخشب، ولم يكن بناء معتبرًا حتى أن التوراة تقول: (1وَكَانَ لَمَّا سَكَنَ الْمَلِكُ فِي بَيْتِهِ، وَأَرَاحَهُ الرَّبُّ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ مِنْ جَمِيعِ أَعْدَائِهِ، 2 أَنَّ الْمَلِكَ قَالَ لِنَاثَانَ النَّبِيِّ: «انْظُرْ. إِنِّي سَاكِنٌ فِي بَيْتٍ مِنْ أَرْزٍ»)[4].

1 صموئيل الثاني، الخامس عشر: 13-14.
2 صموئيل الثاني، الخامس: 3.
3 صموئيل الثاني، الخامس: 6-7.
4 صموئيل الثاني، السابع: 1-2.

وإذا راجعنا سفر صموئيل الثاني وجدنا حياة النبي داود غير مستقرة؛ فتارة يثور عليه ابنه أبشالوم، ويستولي على المدينة بعد هروب داود منها، وتارة ينفصل عن شبع بن بكري وهو من سبط بنيامين.

وفي هذا السياق أيضًا تعترف التوراة بأن اليبوسيين ما زالوا موجودين في ديارهم بوجود حكم داود تقول التوراة: (16 وَبَسَطَ الْمَلاَكُ يَدَهُ عَلَى أُورُشَلِيمَ لِيُهْلِكَهَا، فَنَدِمَ الرَّبُّ عَنِ الشَّرِّ، وَقَالَ لِلْمَلاَكِ الْمُهْلِكِ الشَّعْبَ: «كَفَى! الآنَ رُدَّ يَدَكَ». وَكَانَ مَلاَكُ الرَّبِّ عِنْدَ بَيْدَرِ أَرُونَةَ الْيَبُوسِيِّ)[1].

وتقول التوراة: (18 فَجَاءَ جَادُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ إِلَى دَاوُدَ وَقَالَ لَهُ: «اصْعَدْ وَأَقِمْ لِلرَّبِّ مَذْبَحًا فِي بَيْدَرِ أَرُونَةَ الْيَبُوسِيِّ». 19فَصَعِدَ دَاوُدُ حَسَبَ كَلاَمِ جَادَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ. 20 فَتَطَلَّعَ أَرُونَةُ وَرَأَى الْمَلِكَ وَعَبِيدَهُ يُقْبِلُونَ إِلَيْهِ، فَخَرَجَ أَرُونَةُ وَسَجَدَ لِلْمَلِكِ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ. 21 وَقَالَ أَرُونَةُ: «لِمَاذَا جَاءَ سَيِّدِي الْمَلِكُ إِلَى عَبْدِهِ؟» فَقَالَ دَاوُدُ: «لأَشْتَرِيَ مِنْكَ الْبَيْدَرَ لأَبْنِيَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ»)[2].

مما تقدم نستنتج أن داود عليه السلام بنى قصرًا من خشب الأرز على مشارف مدينة القدس في جبل صهيون، ولم تكن حياته مستقرة وظلت في حروب مستمرة بينه وبين بني إسرائيل من جهة، وبينه وبين أعدائه الخارجين من جهة أخرى.

إضافة لذلك، فقد ظل اليبوسيون أهل القدس موجودين فيها؛ لأنهم سكان الأرض، ولم يتعرض النبي داود لهم ولم يطلب منهم الرحيل من مدينتهم.

وبشكل عام، فقد بنى التوراتيون ومن لف لفهم أوهامًا كثيرة حول ملك داود في القدس.

«لقد كانت صورة أورشليم (القدس) في عهد داود وبنحو أكبر في عهد ابنه سليمان عبر القرون موضوعًا لصياغة الأساطير والقصص الرومانسية لقد صاغ الحجاج الصليبيون

1 صموئيل الثاني، الرابع والعشرون: 16.
2 صموئيل الثاني، الرابع والعشرون: 18-21.

والحالمون من كل نوع قصصًا خرافية حول عظمة مدينة داود وهيكل سليمان، ولذلك لم تكن مصادفة أن نجد أن البحث عن بقايا هيكل سليمان كان من بين التحديات الأولى التي اتخذتها الدراسات الآثارية التوراتية على عاتقها في القرن التاسع عشر، لم يكن البحث سهلاً أبدًا ولم يكن مثمرًا إلا بنحو نادر»[1].

«إن الأمر المفاجئ والمدهش كما أشار إليه عالم آثار جامعة تل أبيت ديفيد أوسيشكين أن العمل الميداني هناك وفي الأجزاء الأخرى من أورشليم (القدس) في الكتاب المقدس أخفقت في تزويد دليل هام على أن المدينة كانت آهلة بالسكان في القرن العاشر ق.م هناك فقدان لأي بناء معماري تذكاري»[2].

ولعل الدراسات الآثارية تشير إلى أن جميع الأسوار والأبنية التي كانت آهلة في القدس زمن النبي داود كان قد بناها أهلها من اليبوسيين العرب، ولم تعثر البعثات الآثارية على أي أثر عمراني يوحي إلى أيدي بني إسرائيل أو إلى عمل قاموا به.

وقد أشرنا من قبل إلى أن القبائل الإسرائيلية لم تكن على صلة بأي حضارة مادية؛ لذلك وجدناهم يتأثرون مباشرة بحضارة أهل البلاد الأصليين من عرب كنعانيين وفرزيين ويبوسيين وغيرهم، أما التوراة التي تزعم اتساع مملكة اليهود في القرن العاشر انطلاقًا من القدس فإن كافة الباحثين الغربيين يشككون بها.

يقول نيل اشير سلبرمان: «في الواقع، من المستبعد جدًا أن تصبح هذه المنطقة المسكونة بشكل متناثر من يهودا وقرية أورشليم (القدس) الصغيرة مركزًا لإمبراطورية عظيمة تمتد من البحر الأحمر في الجنوب إلى سورية في الشمال»[3].

1 إسرائيل فنكلشتاين ونيل اشير سلبرمان، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، ترجمة سعد رسم، دار صفحات، دمشق 2008، ص 177.
2 المرجع نفسه، ص 178.
3 المرجع نفسه، ص 179.

ولعل أهم ما يمكن استنتاجه أن النبي داود عليه السلام كما وصفه القرآن الكريم كان يقضي بالعدل بين الناس، ومن المعجزات التي أجراها الله فهمه لمنطق الطير، وتسخير الجبال له تسبح معه، وإلانة الحديد له حتى يصنع منها الدروع وغيرها من أداوت الحديد، فهو بالمحصلة نبي قبل أن يكون ملكًا، والأنبياء ليس همهم التوسع في الملك واحتلال الأرض، إنما الدعوة إلى الله وإقامة العدل ومحاربة الكفر والشرك.

إن داود عليه السلام ورد ذكره في القرآن الكريم ست عشرة مرة لم يشر إلى ملكه الجغرافي، لا في القدس ولا في غيرها في أي آية من آيات القرآن الكريم، وذلك لأن النبوة أعظم وأكبر من الجغرافية المحدودة المحصورة بين الأسوار.

النبي سليمان والهيكل المزعوم:

أعتقد أننا وصلنا في هذا الجزء من الفصل إلى نقطة حساسة ربما هي المفصل في قضية الصراع بين الإسرائيليين والشعب الفلسطيني والعربي والإسلامي.

ولا بد في هذا الإطار من الإشارة إلى الأسباب التي تجعل هذا البحث من أهم البحوث في هذا السياق:

1- بنت الحركة الصهيونية موضوعها الديني على أساس أن هناك هيكلًا لليهود بناه النبي سليمان ويقع هذا الهيكل تحت المسجد الأقصى.

2- تعتبر الصهيونية أن مدينة القدس هي عاصمة مملكة سليمان ولا بد من أن تكون عاصمة الكيان الصهيوني.

3- تحاول العصابات المتطرفة المدعومة من دولة الكيان الصهيوني هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل الثالث فوق أنقاضه، ويدعمها في ذلك التيار الصهيوني البروتستانتي في الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة المحافظين الجدد والحركات البروتستانتية المتماهية مع الصهيونية اليهودية.

من هو سليمان؟

النبي سليمان عليه السلام، ابن النبي داود عليه السلام، أمه بتشبع، وكانت زوجة أوريا الحثي الذي قتل في إحدى المعارك، فترملت، فتزوجها النبي داود، وأنجب منها ابنه سليمان، وعلى هذا فإن سليمان من أم ليست من بني إسرائيل؛ فهي حثية، ومن كانت أمه غير يهودية فهو ليس يهوديًا.

والنبي سليمان، هو أحد أولاد النبي داود الذين بلغوا سبعة عشر ولدًا، وقد اختار النبي داود ولده سليمان؛ ليرثه، وفضله على أولاده جميعًا.

ومثلما عادى بنو إسرائيل داود، عادوا سليمان عليهما السلام؛ لذلك سخر الله له الطير والجن؛ تقوية لنبوته وملكه الذي كان مهددًا من قبل بني إسرائيل.

والنبي سليمان لم يكن مستقرًا في مكان، فكان داعيًا إلى الله أينما ذهب، وكيفما حلّ، يصنع المحاريب؛ ليحملها في أسفاره الدعوية؛ كي يصلي ويستغفر ويذكر الله، وما تقوله التوراة وما يدعيه الصهاينة من أن سليمان كان مستقرًا في القدس فهذا كلام من الأوهام؛ لأن القرآن الكريم أشار في سبعة عشر موضعًا من السور القرآنية إلى أن سليمان عليه السلام كان متنقلًا يدعو إلى ديانة التوحيد.

وما يزعمونه عن بناء النبي سليمان لما يسمى «الهيكل» ليس إلا من خيال كاتب التوراة، الذي نقل إلى هذا الكتاب أوصاف معابد البابليين والكنعانيين، فصنع ما يسمى «الهيكل»، وكل علماء الآثار - ومنهم الغربيون واليهود- لم يعثروا على ما يدل أن هناك هيكلًا، وليس هناك أي أثر يدل على هذا الهيكل على الرغم من الحفريات المتواصلة التي أحاطت بأسوار المسجد الأقصى من كل جانب.

تشير التوراة إلى أن سليمان صاهر فرعون ملك مصر، (وَأَخَذَ بِنْتَ فِرْعَوْنَ وَأَتَى بِهَا إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ إِلَى أَنْ أَكْمَلَ بِنَاءَ بَيْتِهِ وَبَيْتِ الرَّبِّ وَسُورِ أُورُشَلِيمَ حَوَالَيْهَا)[1]. وبعد فقرات قليلة

1 سفر الملوك الأول، الأصحاح الثالث: 1.

تقول التوراة على لسان سليمان: (7 وَالآنَ أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهِي، أَنْتَ مَلَّكْتَ عَبْدَكَ مَكَانَ دَاوُدَ أَبِي، وَأَنَا فَتىً صَغِيرٌ لاَ أَعْلَمُ الْخُرُوجَ وَالدُّخُولَ)[1].

فكيف يقول سليمان عن نفسه أنه فتى صغير لا يعرف الخروج والدخول وفي الوقت نفسه تقول التوراة صاهر سليمان فرعون وأخذ بنت فرعون وأُتِي بها إلى مدينة داود؟

فهذا أول تناقض في حديث كاتب التوراة عن النبي سليمان عليه السلام.

وعندما نراجع النص الأول نرى قول التوراة: (أَكْمَلَ بِنَاءَ بَيْتِهِ وَبَيْتِ الرَّبِّ وَسُورِ أُورُشَلِيمَ حَوَالَيْهَا) فأي بيت أكمل النبي سليمان؟ وأي بيت للرب بناه وأي سور أيضًا؟ فالواقع في تلك اللحظة كان سليمان فتى فلم يبنِ بيتًا ولم يعمر سور القدس؛ لأن القدس كانت لها أسوارها.

وتبدأ قصة بناء ما يسمى «الهيكل» منذ الأصحاح الخامس في سفر الملوك الأول، حيث تقول التوراة: (1وَأَرْسَلَ حِيرَامُ مَلِكُ صُورَ عَبِيدَهُ إِلَى سُلَيْمَانَ، لأَنَّهُ سَمِعَ أَنَّهُمْ مَسَحُوهُ مَلِكًا مَكَانَ أَبِيهِ، لأَنَّ حِيرَامَ كَانَ مُحِبًّا لِدَاوُدَ كُلَّ الأَيَّامِ. 2 فَأَرْسَلَ سُلَيْمَانُ إِلَى حِيرَامَ يَقُولُ: 3«أَنْتَ تَعْلَمُ دَاوُدَ أَبِي أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَبْنِيَ بَيْتًا لاسْمِ الرَّبِّ إِلهِهِ بِسَبَبِ الْحُرُوبِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِ»)[2].

ثم تقول: (5 وَهأَنَذَا قَائِلٌ عَلَى بِنَاءِ بَيْتٍ لاسْمِ الرَّبِّ إِلهِي كَمَا كَلَّمَ الرَّبُّ دَاوُدَ أَبِي قَائِلاً: إِنَّ ابْنَكَ الَّذِي أَجْعَلُهُ مَكَانَكَ عَلَى كُرْسِيِّكَ هُوَ يَبْنِي الْبَيْتَ لاسْمِي. 6 وَالآنَ فَأْمُرْ أَنْ يَقْطَعُوا لِي أَرْزًا مِنْ لُبْنَانَ، وَيَكُونُ عَبِيدِي مَعَ عَبِيدِكَ، وَأُجْرَةُ عَبِيدِكَ أُعْطِيكَ إِيَّاهَا حَسَبَ كُلِّ مَا تَقُولُ، لأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَنَا أَحَدٌ يَعْرِفُ قَطْعَ الْخَشَبِ مِثْلَ الصِّيْدُونِيِّينَ)[3].

ولننظر كيف تصور كاتب التوراة الاستعداد لبناء المعبد، وكيف بدأ التهويل والتخريف حتى يمسح القصة بمسحة عظيمة كبيرة: (13 وَسَخَّرَ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ مِنْ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ، وَكَانَتِ السُّخَرُ ثَلاَثِينَ أَلْفَ رَجُل. 14 فَأَرْسَلَهُمْ إِلَى لُبْنَانَ عَشَرَةَ آلاَفٍ فِي الشَّهْرِ بِالنَّوْبَةِ.

1 الملوك الأول، الثالث: 7.
2 الملوك الأول، الخامس: 1-3.
3 الملوك الأول، الخامس: 5-6.

يَكُونُونَ شَهْرًا فِي لُبْنَانَ وَشَهْرَيْنِ فِي بُيُوتِهِمْ. وَكَانَ أَدُونِيرَامُ عَلَى التَّسْخِيرِ. 15 وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا يَحْمِلُونَ أَحْمَالاً، وَثَمَانُونَ أَلْفًا يَقْطَعُونَ فِي الْجَبَلِ، 16 مَا عَدَا رُؤَسَاءَ الْوُكَلاَءِ لِسُلَيْمَانَ الَّذِينَ عَلَى الْعَمَلِ ثَلاَثَةَ آلاَفٍ وَثَلاَثَ مِئَةٍ، الْمُتَسَلِّطِينَ عَلَى الشَّعْبِ الْعَامِلِينَ الْعَمَلَ. 17 وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يَقْلَعُوا حِجَارَةً كَبِيرَةً، حِجَارَةً كَرِيمَةً لِتَأْسِيسِ الْبَيْتِ، حِجَارَةً مُرَبَّعَةً. 18 فَنَحَتَهَا بَنَّاؤُو سُلَيْمَانَ، وَبَنَّاؤُو حِيرَامَ وَالْجِبْلِيُّونَ، وَهَيَّأُوا الأَخْشَابَ وَالْحِجَارَةَ لِبِنَاءِ الْبَيْتِ)[1].

فنلاحظ أن مجموع ما سخره سليمان لبناء هذا البيت مئة وثلاث وثلاثون ألف شخص. فلنتصور هذا العدد الضخم الذي قالت عنه التوراة، ولنتصور البناء الذي سيشيدونه!

إن هذا العدد من العمال المسخرين يستطيعون بناء مدينة صغيرة؛ فالمعبد الذي بناه النبي سليمان - وحسب وصف التوراة - لا يتجاوز طوله ستين ذراعًا وعرضه عشرين ذراعًا.

وإذا افترضنا أن الذراع هو سبعون سنتمترًا، فإن طول المعبد بالأمتار لا يتجاوز الأربعين مترًا وثلاثة وثلاثين ألف شخص يشتغلون فيه!!

وتأخذ التوراة بإيراد تفاصيل جزئية لتصل في النهاية إلى القول إن هذا المعبد أعظم ما بني على وجه الأرض.

وحين ندقق في كلام كاتب التوراة، يتضح لنا أنه عندما بدأ بالكتابة عن هذا المعبد، وقف في مدينة بابل أمام معبد بابلي، وراح يتحدث عنه بالتفاصيل حتى أنه لم يترك الحديث عن النوافذ وأشكال الحيطان والطبقات. فيقول مثلًا: (3 وَالرِّوَاقُ قُدَّامَ هَيْكَلِ الْبَيْتِ طُولُهُ عِشْرُونَ ذِرَاعًا حَسَبَ عَرْضِ الْبَيْتِ، وَعَرْضُهُ عَشَرُ أَذْرُعٍ قُدَّامَ الْبَيْتِ. 4 وَعَمِلَ لِلْبَيْتِ كُوًى مَسْقُوفَةً مُشَبَّكَةً. 5 وَبَنَى مَعَ حَائِطِ الْبَيْتِ طِبَاقًا حَوَالَيْهِ مَعَ حِيطَانِ الْبَيْتِ حَوْلَ الْهَيْكَلِ وَالْمِحْرَابِ، وَعَمِلَ غُرُفَاتٍ فِي مُسْتَدِيرِهَا. 6 فَالطَّبَقَةُ السُّفْلَى عَرْضُهَا خَمْسُ أَذْرُعٍ، وَالْوُسْطَى عَرْضُهَا سِتُّ أَذْرُعٍ، وَالثَّالِثَةُ عَرْضُهَا سَبْعُ أَذْرُعٍ، لأَنَّهُ جَعَلَ لِلْبَيْتِ حَوَالَيْهِ مِنْ خَارِجٍ أَخْصَامًا لِئَلاَّ تَتَمَكَّنَ الْجَوَائِزُ فِي حِيطَانِ الْبَيْتِ)[2].

1 الملوك الأول، الخامس: 13-18.
2 الملوك الأول، السادس: 3-6.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، ما الذي جعل كانت التوراة يأتي بهذه التفصيلات؟ هل كان شاهدًا على بناء هذا البيت؟ أم أن أحدًا ممن رأوا بناء البيت ذكروا له هذه التفاصيل؟ لكن الذي حدث - كما أسلفت - أن كاتب التوراة وقف أمام معبد بابلي، وراح يدون كل شيء من أبعاد وأطوال وأوصاف.

ومن أجل أن تكتمل المبالغة يقول كاتب التوراة: (7 وَالْبَيْتُ فِي بِنَائِهِ بُنِيَ بِحِجَارَةٍ صَحِيحَةٍ مُقْتَلَعَةٍ، وَلَمْ يُسْمَعْ فِي الْبَيْتِ عِنْدَ بِنَائِهِ مِنْحَتٌ وَلاَ مِعْوَلٌ وَلاَ أَدَاةٌ مِنْ حَدِيدٍ)[1].

فهل كان هذا صحيحًا؟ هل يعقل أن يبنى بيت أو معبد دون أن تستخدم فيه أداة من حديد؟

وتتناول التوراة وصفًا من داخل المعبد، ولعل أهم ما يلفت النظر فيه أن النبي سليمان استخدم الذهب؛ لتغطية الأشياء من داخل المعبد فتقول: (21 وَغَشّى سُلَيْمَانُ الْبَيْتَ مِنْ دَاخِل بِذَهَبٍ خَالِصٍ. وَسَدّ بِسَلاَسِلِ ذَهَبٍ قُدّامَ الْمِحْرَابِ. وَغَشّاهُ بِذَهَبٍ. 22 وَجَمِيعُ الْبَيْتِ غَشّاهُ بِذَهَبٍ إِلَى تَمَامِ كُلِّ الْبَيْتِ، وَكُلُّ الْمَذْبَحِ الّذِي لِلْمِحْرَابِ غَشّاهُ بِذَهَبٍ)[2].

ومن ناحية أخرى تقول التوراة إنه صنع تمثالين لملكين في المحراب من خشب الزيتون، علو الواحد عشرة أذرع وخمسة أذرع جناح الملاك الواحد وخمسة أذرع جناح الملك الآخر.

وهكذا تستمر التوراة في وصف المعبد من الداخل بكل التفاصيل، ويستغرق ذلك الأصحاح السادس والسابع ومئات السطور.

ولكن، ما يلفت النظر أن البيت الذي بناه سليمان لم يكن للعبادة، بل من أجل أن يسكن الرب فيه: (12 حِينَئِذٍ تَكَلّمَ سُلَيْمَانُ: "قَالَ الرّبُّ إِنّهُ يَسْكُنُ فِي الضّبَابِ. 13 إِنّي قَدْ بَنَيْتُ لَكَ بَيْتَ سُكْنَى، مَكَانًا لِسُكْنَاكَ إِلَى الأَبَدِ")[3].

وعلى الرغم من أن التوراة تقول إن سليمان بنى المعبد لأجل الرب، إلا أنها تصف سليمان بأوصاف تتنافى كليًا مع إخلاصه لربه.

1 الملوك الأول، السادس: 7.
2 الملوك الأول، السادس: 21-22.
3 الملوك الأول، الثامن: 12-13.

فهي تقول: (4 وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ. 5 فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ. 6 وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَامًا كَدَاوُدَ أَبِيهِ)[1].

(8 وَهكَذَا فَعَلَ لِجَمِيعِ نِسَائِهِ الْغَرِيبَاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يُوقِدْنَ وَيَذْبَحْنَ لآلِهَتِهِنَّ)[2].

إذًا، لماذا بنى سليمان المعبد في القدس؟ ما دام أنه انحاز عن عبادة ربه إلى عبادة الأصنام؟

لكن الحقيقة أن سليمان نبي، وحاشا لنبي أن يفعل مثل ما تقول التوراة. إن هذا يؤكد أن ما قالته التوراة عن بناء سليمان لهذا الهيكل ما هو إلا وهم وخيال.

وحقيقة الأمر أن النبي سليمان لم يبنِ هيكلًا كما يزعمون، ولم يسر وراء آلهة نسائه وأصنامهن.

ويبدو أن النبي سليمان حسب نص التوراة كان قد أرهق بني إسرائيل، واستعبدهم بشدة وهذا ما أفصحت عنه في قولها: (وَكَلّمُوا رَحُبْعَامَ [ابن سليمان] قَائِلِينَ: 4"إِنّ أَبَاكَ قَسّى نِيرَنَا، وَأَمّا أَنْتَ فَخَفِّفِ الآنَ مِنْ عُبُودِيّةِ أَبِيكَ الْقَاسِيَةِ، وَمِنْ نِيرِهِ الثّقِيلِ الّذِي جَعَلَهُ عَلَيْنَا، فَنَخْدِمَكَ")[3].

فمن الواضح تمامًا، أن التناقض الذي يلف كلام مؤلف التوراة يستمر دون أي تنبه أو انتباه له. فكيف يتماهون الآن مع هيكل سليمان؟ ويقاتلون من أجل استعادته وفي الوقت نفسه يقولون عن سليمان أنه وضع النير على أعناقهم؟ وأثقل عليهم بالضرائب حتى بنى هيكله وقصره؟

1 الملوك الأول، الحادي عشر: 4-6.
2 الملوك الأول، الحادي عشر: 8.
3 الملوك الأول، الثاني عشر: 3-4.

إن النبي سليمان - كما وصفه القرآن الكريم - نبي مرسل يدعو إلى ديانة التوحيد، وليس همه أو ليس من اختصاص النبوة أن يتسلط النبي على الناس، ويضع النير على رقابهم، بل مهمته رفع نير العبودية عنهم. ولكن سليمان ليس نبيًا حسب توراتهم، إنما هو ملك ليس أكثر.

وعندما يدّعون على سليمان ما لا يليق به بوصفه نبيًا، فإن الواقع الآخر يقول لنا إن سليمان حكم فيمن حكم بني إسرائيل، ولكنه أيضًا - بوصفه نبيًا- كان مكلفًا أيضًا بدعوة الناس جميعًا إلى ديانة التوحيد. لكن التوراة تقول إنه بنى المعبد لهم وحكمهم وحدهم، ولم تشر إلى عدالته وحكمه بين الناس جميعًا.

ظلت مدينة القدس على حالها، وظل اليبوسيون سُكانها الأصليون موجودين فيها لم يغادروها؛ لذلك فإن النبي سليمان لم يجد مشاكل مع سكان القدس الأصليين، وجاءت جميع المشاكل من بني إسرائيل.

لقد أشرنا إلى أن سليمان من أمٍّ حثّية من الخليل، فهو ليس يهوديًا حسب القانون الديني اليهودي، إذًا، لماذا يتماهى الإسرائيليون مع شخصيته بينما هو لا ينتسب لعقيدتهم؟

إن المسألة برمتها أن الإسرائيليين لا يجدون ما يستندون إليه من أجل استعمارهم لفلسطين إلا العودة إلى ما كتبه مؤلف التوراة عن الوعد الإلهي المزعوم، وكذلك عن الهيكل المزعوم.

ماذا يقول العلماء والمؤرخون والآثاريون عن الهيكل التوراتي؟

لعل الهيكل من أكثر الأمور التوراتية التي أثارت شهية الباحثين والعلماء اللاهوتيين وعلماء الآثار؛ لأن الحركة الصهيونية والمتشددين اليهود أسسوا نظريتهم لإقامة الدولة اليهوديّة على أساس سياسي ديني. وضعوا نصب أعينهم احتلال القدس وتهويدها؛ تمهيدًا لتحويل الأماكن الإسلامية المقدسة إلى أماكن يهودية مقدسة، وعلى رأسها المسجد الأقصى بكامله.

ومن المحاولات العديدة لهدم المسجد الأقصى ما تقوم به دومًا حركات اليهود المتدينين؛ مثل حركة أمناء الهيكل وحراس الهيكل، وهذه الحركات مدعومة أولًا من الدولة والسياسيين الصهاينة، ومن بعض الحركات الأصولية المتطرفة، كالسفارة المسيحيّة وحركة الحتمية القدرية الأمريكية التي تلاقي الدعم والتأييد من قبل المحافظين الجدد.

ومن خلال مراجعة شاملة لآراء العلماء والآثاريين، نرى أن هناك نمطين من العلماء اتخذ كل فريق منهم منحى مغايرًا للفريق الآخر.

الفريق الأول: من جاء ليثبت مقولة التوراة مؤيدًا لما تدعيه الحركة الصهيونيّة من حق مزعوم بأرض فلسطين.

الفريق الثاني: بحث المسألة بحيادية وخرج بنتيجته أن التوراة متناقضة كليًا مع علم التاريخ وعلم الآثار.

ويؤكد علماء الفريق الثاني أن الوصف الذي جاء في التوراة، واعتاد المؤرخون على ترديده عن اتساع حدود مملكة الملك سليمان وامتدادها، فيعده أكثر الباحثين من قبيل المبالغات التي درجت عليها دويلات تلك العصور.

والحقيقة هي أن مملكة سليمان التي تبجح اليهود بعظمتها كانت أشبه بمحمية مصرية مرابطة على حدود مصر قائمة على حراب أسيادهم الفراعنة الذين كان أهم ما يهدفون إليه من وراء هذا الإسناد حماية حدودهم الشرقية من غارات الأقوام الطامعة بمصر، وفي مقدمتهم الآشوريون.

وحسب نص التوراة عندما قال الشعب لابن سليمان عليه السلام: (إِنّ أَبَاكَ ثَقّلَ نِيرَنَا وَأَمّا أَنْتَ فَخَفِّفْ مِنْ نِيرِنَا)[1]، فإن الملك سليمان أراد أن يجاري الفراعنة في البذخ والظهور بما هو فوق طاقته وإمكاناته الاقتصادية، وذلك بإغداقه في إقامة الأبنية الشاهقة والقصور الفخمة، فأثقل كاهل الشعب بكثرة الضرائب، كما أثقل كاهل خزينته بالديون المتراكمة حتى

1 الملوك الأول، الثاني عشر: 10.

اضطر أن يقدم إلى حيرام ملك صور عشرين مدينة في أرض الجليل - حسب زعم التوراة- مقابل الديون التي تراكمت عليه، ولما تعثر الملك سليمان في احتلال أرض الفلسطينيين الساحلية، طلب معونة فروعن مصر، فأرسل إليه جيشًا مصريًا ساعده في احتلالها.

ويعلق المؤرخ المشهور ويلز على التمادي في الخيال والمبالغات في تصوير اتساع حدود مملكتي داود وسليمان، فيقول في ذلك: "ولا يستطيع أحد أن يزعم أن أرض الميعاد وقعت يومًا بيد العبرانيين. ويلوح أن الملك داود نفسه وضع نفسه في حماية حيرام ملك صور فتثبت هذه المحالفة ملكه"[1]. ويرى الباحثون أن العوامل التي ساعدت على توطيد ملك داود، وتهيئة الظروف الملائمة لبعض الاتساع هي: "أن أمور مصر في عهده كانت مرتبكة فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام، وكانت أمور الدولة الآشورية مرتبكة كذلك. وقد منح هذا الارتباك لداود شيئًا من الحرية والحركة والنشاط وممارسة السيادة"[2].

ويشرح ويلز كيف صور كتبة التوراة مملكة سليمان صورة تفوق الواقع بكثير، ويقول في ذلك: "من الخير ألا تغيب عن بالنا التقديرات النسبية للأمور فسليمان لم يكن وهو في أوج مجده إلا ملكًا صغيرًا يحكم مدينة صغيرة. وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث أنه لم تنقض بضعة أعوام على وفاته حت استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على القدس ونهب معظم ما فيها من كنوز. ويقف كثير من النقاد موقف المستريب إزاء قصة مجد سليمان التي توردها أسفار الملوك والأيام وهم يقولون إن الكبرياء القومي لدى كتاب متأخرين هو الذي دعاهم إلى إضافة أشياء إلى القصة والمبالغة فيها"[3].

ويقول ويلز: "إن سليمان تحالف مع حيرام ملك صور الكنعاني. وأخذ هذا يستخدم مملكة سليمان طريقًا عامًا لينفذ بواسطته إلى البحر الأحمر فيبني فيه السفن". ويقول: "إن قصة ملك سليمان وحكمته التي أوردتها التوراة تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر كان مشغوفًا بالمبالغة في وصف رخاء عصر سليمان مولعًا بتمجيد حكمه.

1 ويلز، معالم الإنسانية، الكتاب الرابع، نقلًا عن كتاب اليهودية، د. أحمد الشلبي، ص 283.
2 المرجع نفسه، ص 279.
3 المرجع نفسه، ص 284.

أما هيكل سليمان الذي تعده التوراة مثلًا لأوج عظمة سليمان هو من صنع الفينيقيين الصوريين وقد بني على نمط المعابد الكنعانية كما أن قصر سليمان في القدس من صنع الفينيقيين أيضًا، وحتى تسمية الهيكل مأخوذة من كلمة هيكال الكنعانية"[1].

فنحن نلاحظ أن ويلز وغيره ممن كتب في تاريخ العالم - وخاصة تاريخ فلسطين - اعتمدوا النص التوراتي وحده، وراحوا يشرحونه وينقدونه. ولم يدركوا أن القرآن الكريم تحدث عن شخصيتين نبويتين هما داود وسليمان. ولم يأتِ القرآن الكريم على ما يسمى "الهيكل"، وعلى ما يسمى مملكة داود بحدودها التي تناولتها التوراة.

وبغض النظر عما يقوله المؤرخون العالميون، فإن رأينا يستند أولًا على ما جاء من كلام الله في قرآنه العظيم، ومن ثمّ نناقش القضايا التاريخيّة وغيرها؛ لنصل في النهاية إلى فهم خاص للنبيين داود وسليمان، وما فعلاه في سبيل نشر عقيدة التوحيد.

أما بالنسبة لعلماء الآثار الذين نقدوا النص التوراتي، وبينوا أنه مختلف كليًا عن الحقائق الآثارية فهم كثر أمثال: كاثرين كانون، والبروفيسور إسرائيل فنكلشتاين، والدكتور نيل اشير سلبرمان، وغيرهم...

فكتاب التوراة اليهوديّة مكشوفة على حقيقتها يقول فنكلشتاين: "وفي الحقيقة فإن الوصف التاريخي لإسرائيل في الكتاب المقدس العبري برمته ليس أكثر من تركيبة أيديولوجية ماهرة أو متقنة أنتجتها دوائر كهنوتية في القدس في الفترة ما بعد النفي أو حتى في الفترة الهلينية"[2].

ويقول: "لقد أخفقت كل التنقيبات الآثارية التي أجريت في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين حول جبل الهيكل في القدس في التعرف حتى على مجرد أثر بسيط لهيكل سليمان الأسطوري أو مجمع قصره"[3]. وتابع قائلاً: "جوهريًا لقد أخطأ علم الآثار في تأريخ

1 المرجع السابق، وطه باهر.
2 إسرائيل فنكلشتاين ونيل اشير سلبرمان، ص 172.
3 المرجع نفسه، ص 173.

كل الآثار الداودية والسليمانية بمدة قرن كامل؛ فالاكتشافات التي أرّخت بأنها تنتمي للزمن السابق مباشرة لعهد داود في أواخر القرن الحادي عشر ق.م تبين أنها تعود في الواقع لمنتصف القرن العاشر، وتلك التي أرخت بعهد سليمان تبين أنها تعود لأوائل القرن التاسع ق.م"[1].

ويقول اشير سلبرمان: "إذا لم يكن هناك سبب مهم للشك في تاريخية داود وسليمان، فإن الكثير من الأسباب لوضع علامات استفهام كبيرة حول مدى وعظمة مملكتهما، إذ لم تكن هناك إمبراطورية كبيرة ولم تكن هناك أبنية تذكارية ضخمة، ولم تكن هناك عاصمة رائعة فماذا كانت طبيعة مملكة داود إذن؟"[2].

1 المرجع نفسه، ص 188.
2 المرجع نفسه، ص 189.

الفصل الرابع

- تحرير فلسطين في القرن السادس قبل الميلاد

الصراع بين المتسربين الإسرائيليين والفلسطينيين:

من خلال نصوص التوراة نستشف أن الصراع والحروب لم تنقطع بين الفلسطينيين سكان الأرض والغزاة الإسرائيليين طوال ما يسمى عصر القضاة وعصر الملوك. وتورد التوراة قصصًا عديدة عن صراع دامٍ بينهما في أيام حكم الملك داود عليه السلام.

وحسب قول التوراة فقد شهدت مدينة القدس جمودًا عمرانيًا وسكانيًا في تلك الفترة، بينما شهدت مناطق فلسطين الأخرى ذلك الصراع.

وقد شهدنا ذلك الصراع في أيام صموئيل، ورأينا كيف قتل الفلسطينيون الملك شاؤول وأولاده الثلاثة في معركة جلبوع. وتقول التوراة في ذلك: (1 وَحَارَبَ الْفِلِسْطِينِيُّونَ إِسْرَائِيلَ، فَهَرَبَ رِجَالُ إِسْرَائِيلَ مِنْ أَمَامِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَسَقَطُوا قَتْلَى فِي جَبَلِ جِلْبُوعَ)[1] 31: 1.

ثم شهدت القدس الصراع الدامي بين سبط يهودا وسبط بنيامين من جهة، وبين إسرائيل من جهة ثانية، خاصة بعد موت النبي سليمان، واستلام ابنه رحبعام الملك.

والذي يلفت النظر أن بدء الانقسام بين أسباط إسرائيل، أدى أول الأمر إلى انشقاق قام به المدعو يربعام وهو من سبط أفرايم. وقام ضدّ رحبعام بن سليمان، واتجه إلى نابلس (شكيم) وسكن بها. وقام هو وجماعته، وصنعوا عجلين من ذهب وقال لهم: ("كَثِيرٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّذِينَ أَصْعَدُوكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ". 29 وَوَضَعَ وَاحِدًا فِي بَيْتِ إِيلَ، وَجَعَلَ الآخَرَ فِي دَانَ)[2]. وهذا يعني أن لا مكانة لما يسمى "الهيكل" لدى الإسرائيليين. بل بقية سفر الملوك الأول لم تهتم بالحديث عن الهيكل؛ لأن بني إسرائيل تعودوا أن ينتقلوا من عقيدة إلى أخرى كلما حانت لهم الظروف.

ولننظر ماذا كان دور ملوك يهودا في مدينة القدس:

تقول التوراة: (21 وَأَمَّا رَحُبْعَامُ بْنُ سُلَيْمَانَ فَمَلَكَ فِي يَهُوذَا... وَمَلَكَ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً فِي أُورُشَلِيمَ... وَاسْمُ أُمِّهِ نِعْمَةُ الْعَمُّونِيَّةُ)[3]، وهذا يعني أيضًا أن أمه ليست من بني إسرائيل.

1 سفر أخبار الأيام الأول، الأصحاح العاشر: 1.
2 الملوك الأول، الثاني عشر: 28-29.
3 الملوك الأول، الرابع عشر: 21.

وتقول التوراة: (25 وَفِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ لِلْمَلِكِ رَحُبْعَامَ، صَعِدَ شِيشَقُ مَلِكُ مِصْرَ إِلَى أُورُشَلِيمَ، 26 وَأَخَذَ خَزَائِنَ بَيْتِ الرَّبِّ وَخَزَائِنَ بَيْتِ الْمَلِكِ)[1].

وخلال سفر الملوك الأول، تتحدث التوراة عن صراعات مستمرة دامية بين أسباط بني إسرائيل، وتنتقل الملكية من واحد إلى آخر في كل من أسباط إسرائيل في الشمال وأسباط يهودا في الجنوب، وأهم ما في ذلك أن التوراة تتحدث عن الانحياز لعبادة الأوثان في غالبية عصور هؤلاء الملوك.

ومنذ الأصحاح العشرين من سفر الملوك الأول، تبدأ حملات حربية ضدّ بني إسرائيل الذين تسربوا إلى فلسطين، وكانت أولى هذه الحملات حملة بنهدد ملك آرام، حيث حاصر السامرة وحاربها.

(17حِينَئِذٍ صَعِدَ حَزَائِيلُ مَلِكُ أَرَامَ وَحَارَبَ جَتّ وَأَخَذَهَا، ثُمّ حَوّلَ حَزَائِيلُ وَجْهَهُ لِيَصْعَدَ إِلَى أُورُشَلِيمَ. 18فَأَخَذَ يَهُوآشُ مَلِكُ يَهُوذَا جَمِيعَ الأَقْدَاسِ الّتِي قَدّسَهَا يَهُوشَافَاطُ وَيَهُورَامُ وَأَخَزْيَا آبَاؤُهُ مُلُوكُ يَهُوذَا، وَأَقْدَاسَهُ وَكُلّ الذّهَبِ الْمَوْجُودِ فِي خَزَائِنِ بَيْتِ الرَّبِّ وَبَيْتِ الْمَلِكِ، وَأَرْسَلَهَا إِلَى حَزَائِيلَ مَلِكِ أَرَامَ فَصَعِدَ عَنْ أُورُشَلِيمَ)[2].

وهذا ما تخبرنا به التوراة عما يسمى بيت الرب أو الهيكل، الذي أصبح بيت مال؛ ليؤخذ منه الذهب وجميع المقدسات، وتقدم للآراميين؛ خوفًا من اجتياحه.

ومن خلال قراءة أحداث التوراة يتبين أن بني إسرائيل باعتبارهم طارئين على أرض فلسطين أخذت الممالك العربية من آرامية وآشورية وموآبية وبابلية تزحف إلى فلسطين لتخلصها من هؤلاء الغرباء.

ولئن اعتبر بعض المؤرخين اليهود ومن لف لفهم أن التحرير البابلي هو سبي لبني إسرائيل، بمعنى أنهم سُبوا من أرضهم وأرض أجدادهم، ولكن الحقيقة تقول إن البابليين أرادوا تحرير فلسطين وبيت المقدس من هؤلاء المتسربين الإسرائيليين. والدليل على ذلك أنه عندما

1 الملوك الأول، الرابع عشر: 25-26.
2 سفر الملوك الثاني، الأصحاح الثاني عشر: 17-18.

جاءت الحملات البابلية من العراق جمعت بني إسرائيل فقط، وأخذتهم إلى بلادها بينما لم تذكر أيّ مصادر أن البابليين أخذوا شخصًا واحدًا من الكنعانيين أو الفلسطينيين.

ولعل أهم الأسباب التي دفعت البابليين لتحرير فلسطين من هؤلاء المتسربين الإسرائيليين تعاونهم الدائم وتحالفهم المستمر مع الفراعنة أعداء الآشوريين والبابليين التقليديين، ويبدو أن أول حملة قام بها الآشوريون، كانت في زمن فتح ملك إسرائيل حيث تقول التوراة: (جَاءَ تَغْلَثَ فَلاَسِرُ مَلِكُ أَشُّورَ وَأَخَذَ عُيُونَ وَآبَلَ بَيْتِ مَعْكَةَ وَيَانُوحَ وَقَادَشَ وَحَاصُورَ وَجِلْعَادَ وَالْجَلِيلَ وَكُلّ أَرْضِ نَفْتَالِي، وَسَبَاهُمْ إِلَى أَشُّورَ)[1].

وتشير التوراة إلى أن الملك آحاز أرسل رسلًا إلى تغلث فلاسر ملك آشور قائلًا: (أَنَا عَبْدُكَ وَابْنُكَ. اصْعَدْ وَخَلِّصْنِي مِنْ يَدِ مَلِكِ أَرَامَ وَمِنْ يَدِ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ الْقَائِمَيْنِ عَلَيّ". 8 فَأَخَذَ آحَازُ الْفِضَّةَ وَالذَّهَبَ الْمَوْجُودَةَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ وَفِي خَزَائِنِ بَيْتِ الْمَلِكِ وَأَرْسَلَهَا إِلَى مَلِكِ أَشُّورَ هَدِيَّةً. 9 فَسَمِعَ لَهُ مَلِكُ أَشُّورَ، وَصَعِدَ مَلِكُ أَشُّورَ إِلَى دِمَشْقَ وَأَخَذَهَا وَسَبَاهَا)[2].

وفي الأصحاح السابع عشر تقول التوراة: (1 فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةَ عَشَرَةَ لآحَازَ مَلِكِ يَهُوذَا، مَلَكَ هُوشَعُ بْنُ أَيْلَةَ فِي السَّامِرَةِ... 3 وَصَعِدَ عَلَيْهِ شَلْمَنْأَسَرُ مَلِكُ أَشُّورَ، فَصَارَ لَهُ هُوشَعُ عَبْدًا وَدَفَعَ لَهُ جِزْيَةً... 6 فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِهُوشَعَ أَخَذَ مَلِكُ أَشُّورَ السَّامِرَةَ، وَسَبَى إِسْرَائِيلَ إِلَى أَشُّورَ وَأَسْكَنَهُمْ فِي حَلَحَ وَخَابُورَ نَهْرِ جُوزَانَ وَفِي مُدُنِ مَادِي)[3].

وتقول التوراة: (13 وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشَرَةَ لِلْمَلِكِ حَزَقِيَّا، صَعِدَ سَنْحَارِيبُ مَلِكُ أَشُّورَ عَلَى جَمِيعِ مُدُنِ يَهُوذَا الْحَصِينَةِ وَأَخَذَهَا. 14وَأَرْسَلَ حَزَقِيَّا مَلِكُ يَهُوذَا إِلَى مَلِكِ أَشُّورَ إِلَى لَخِيشَ يَقُولُ: "قَدْ أَخْطَأْتُ. ارْجِعْ عَنِّي، وَمَهْمَا جَعَلْتَ عَلَيّ حَمَلْتُهُ". فَوَضَعَ مَلِكُ أَشُّورَ عَلَى حَزَقِيَّا مَلِكِ يَهُوذَا ثَلاَثَ مِئَةِ وَزْنَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَثَلاَثِينَ وَزْنَةً مِنَ الذَّهَبِ)[4] 18: 14.

وتقول التوراة: (17 وَأَرْسَلَ مَلِكُ أَشُّورَ تَرْتَانَ وَرَبْسَارِيسَ وَرَبْشَاقَى مِنْ لَخِيشَ إِلَى الْمَلِكِ حَزَقِيَّا بِجَيْشٍ عَظِيمٍ إِلَى أُورُشَلِيمَ، فَصَعِدُوا وَأَتَوْا إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَلَمَّا صَعِدُوا جَاءُوا وَوَقَفُوا عِنْدَ

1 الملوك الثاني، الخامس عشر: 29.
2 الملوك الثاني، السادس عشر: 7-9.
3 الملوك الثاني، السابع عشر: 1-6.
4 الملوك الثاني، الثامن عشر: 13-14.

قَنَاةِ الْبِرْكَةِ الْعُلْيَا الّتي في طَرِيقِ حَقْلِ الْقَصّارِ. 18وَدَعَوْا الْمَلِكَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَلِيَاقِيمُ بْنُ حِلْقِيّا الّذِي عَلَى الْبَيْتِ وَشِبْنَةُ الْكَاتِبُ وَيُواخُ بْنُ آسَافَ الْمُسَجِّلُ. 19 فَقَالَ لَهُمْ رَبْشَاقَى: "قُولُوا لِحَزَقِيّا: هكَذَا يَقُولُ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ مَلِكُ أَشُورَ: مَا الاتِّكَالُ الّذِي اتّكَلْتَ؟")[1]. (المقصود تآمره مع فرعون).

ثم تقول التوراة: (1 كَانَ مَنَسّى ابْنَ اثْنَتَيْ عَشَرَةَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ خَمْسًا وَخَمْسِينَ سَنَةً في أُورُشَلِيمَ، وَاسْمُ أُمّهِ حَفْصِيبَةُ. 2 وَعَمِلَ الشّرّ في عَيْنَيِ الرّبّ حَسَبَ رَجَاسَاتِ الأُمَمِ الّذِينَ طَرَدَهُمُ الرّبُّ مِنْ أَمَامِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. 3 وَعَادَ فَبَنَى الْمُرْتَفَعَاتِ الّتي أَبَادَهَا حَزَقِيّا أَبُوهُ، وَأَقَامَ مَذَابِحَ لِلْبَعْلِ، وَعَمِلَ سَارِيَةً كَمَا عَمِلَ أَخْآبُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ، وَسَجَدَ لِكُلّ جُنْدِ السّمَاءِ وَعَبَدَهَا)[2].

إذًا، لا مكان لذلك الهيكل في عبادة كثير من ملوك بني إسرائيل، وعدم اهتمامهم بما يسمى "الهيكل" يدل على أنه لا قدسية له ولا مكانة عند هؤلاء المتسربين من بني إسرائيل. ولكن يبدو أن عدم الاهتمام يدل على عدم وجود هذا الهيكل، حسب ما وصفته التوراة مثل ما قلنا سابقًا.

ولعل أكثر النصوص التوراتية تأكيدًا على عدم وجود هذا الهيكل وعدم وجود أي أثر له ذلك النص الذي يقول: (10 وَتَكَلّمَ الرّبُّ عَنْ يَدِ عَبِيدِهِ الأَنْبِيَاءِ قَائِلاً: ...هأَنَذَا جَالِبٌ شَرًّا عَلَى أُورُشَلِيمَ وَيَهُوذَا حَتّى أَنّ كُلّ مَنْ يَسْمَعُ بِهِ تَطِنُّ أُذُنَاهُ. 13 وَأَمُدُّ عَلَى أُورُشَلِيمَ خَيْطَ السّامِرَةِ وَمِطْمَارَ بَيْتِ أَخْآبَ، وَأَمْسَحُ أُورُشَلِيمَ كَمَا يَمْسَحُ وَاحِدٌ الصّحْنَ. يَمْسَحُهُ وَيَقْلِبُهُ عَلَى وَجْهِهِ. 14 وَأَرْفُضُ بَقِيّةَ مِيرَاثِي، وَأَدْفَعُهُمْ إِلَى أَيْدِي أَعْدَائِهِمْ، فَيَكُونُونَ غَنِيمَةً وَنَهْبًا لِجَمِيعِ أَعْدَائِهِمْ)[3].

فإذا كان التوراتيون يؤمنون بالوعد الإلهي المزعوم، ويدعون أن أرض فلسطين وعدها الله لتكون ملكًا لهم، فعليهم أيضًا أن يؤمنوا بما قاله الرب بهذا النص؛ لأن هذا النص حسب

1 الملوك الثاني، الثامن عشر: 17-19.
2 الملوك الثاني، الحادي والعشرون: 1-3.
3 الملوك الثاني، الحادي والعشرون: 10-14.

توراتهم يقول سأمسح أورشليم مسحًا من الوجود وأرفض استمرار الميراث أي الذي كان لبني إسرائيل؛ فالله يتعهد هنا بمسح القدس وتسليم بني إسرائيل لأعدائهم من كل الجهات.

وتستمر التوراة في الحديث عن الأشرار من ملوك يهودا حتى تصل إلى الأصحاح الرابع والعشرين من سفر الملوك الثاني. وتبدو أن هذه الصفحات التي لا يغيب عنه شر هؤلاء الملوك تمهد للآتي الذي هو بدء التحرير البابلي لأرض فلسطين.

لماذا تسمية التحرير البالي؟

من المعروف أن الهجرات العربية التي انبثقت من اليمن توجهت باتجاهين، الاتجاه الأول صعد من اليمن على امتداد ساحل البحر الأحمر وحتى العقبة ثمّ فلسطين. والاتجاه الثاني انتقل من اليمن اتجاه الشرق على ساحل بحر العرب والخليج العربي، وامتد حتى وصل إلى بلاد الرافدين.

واستقر في فلسطين الكنعانيون والقبائل المنبثقة عنه؛ مثل اليبوسيين والأموريين، واستقر في بلاد الرافدين الآشوريون والكلدانيون والبابليون.

وقد عمل ملوك بلاد الرافدين على إنشاء الإمبراطوريات الواسعة بينما ظل الكنعانيون في مدن الممالك أو ممالك المدن، وظلّت تتقاذفهم أمواج المصريين من جهة وأمواج الآشوريين والبابليين من جهة أخرى.

في نهاية القرن السادس ق.م وبعد أن عاثت قبائل بني إسرائيل فسادًا في أراضي الكنعانيين، اتفقت القبائل والممالك العربية آنذاك على تخليص فلسطين من الغزاة الإسرائيليين.

وتقول التوراة في ذلك: (1 فِي أَيَّامِهِ [يهوياقيم] 1 فِي أَيَّامِهِ صَعِدَ نَبُوخَذْنَاصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ، فَكَانَ لَهُ يَهُويَاقِيمُ عَبْدًا ثَلاَثَ سِنِينَ. ثُمَّ عَادَ فَتَمَرَّدَ عَلَيْهِ. 2 فَأَرْسَلَ الرَّبُّ عَلَيْهِ غُزَاةَ الْكِلْدَانِيِّينَ، وَغُزَاةَ الأَرَامِيِّينَ، وَغُزَاةَ الْمُوآبِيِّينَ، وَغُزَاةَ بَنِي عَمُّونَ وَأَرْسَلَهُمْ عَلَى يَهُوذَا لِيُبِيدَهَا حَسَبَ كَلاَمِ الرَّبِّ)[1]. فالتوراة هنا تصنف العرب الذين جاؤوا ليحرروا فلسطين والقدس من أيدي الإسرائيليين بأنهم "غزاة".

1 الملوك الثاني، الرابع والعشرون: 1-2.

والواقع كما قلنا إن أرض فلسطين هي أرض كنعانية، تسرب إليها الإسرائيليون واحتلوا أجزاء منها. والكلدانيون والآراميون والمؤآبيين والعمونيون هم أولاد عمومة مع الكنعانيين والكلدانيين، جاؤوا من العراق والآراميون من سورية والمؤابيون والعمونيون جاؤوا من الأردن.

فهؤلاء هم العرب الأصليون الذين كانوا يعيشون في بلادهم العربية سورية والعراق والأردن وفلسطين، وظهر جليًا للجميع أن العنصر الغريب عنه هم هؤلاء الإسرائيليون؛ لذلك كان توجه الجميع هو فلسطين لتحريرها من هذا العنصر الغريب.

وإذا قارنا ذلك الزمن الغابر وهو القرن السادس ق.م، بما جرى منذ نكبة فلسطين نرى أن أهل بلاد الشام هم الأكثر صدامًا مع المشروع الصهيوني، ونقصد أهل بلاد الشام سورية والقسم الشمالي من العراق والأردن. والعداء التقليدي ما زال مستفحلًا بين هؤلاء العرب وبين الغزو الصهيوني الحديث؛ فالحالتان متشابهتان في الماضي والحاضر وحتى المستقبل.

أما لماذا يقوم هؤلاء بالتوجه نحو فلسطين لتخليصها من هؤلاء الغزاة الإسرائيليين حسب نص التوراة؟

لننظر ماذا تقول التوراة: (3 إِنَّ ذلِكَ كَانَ حَسَبَ كَلاَمِ الرَّبِّ عَلَى يَهُوذَا لِيَنْزِعَهُمْ مِنْ أَمَامِهِ لأَجْلِ خَطَايَا مَنَسَّى حَسَبَ كُلِّ مَا عَمِلَ. 4 وَكَذلِكَ لأَجْلِ الدَّمِ الْبَرِيءِ الَّذِي سَفَكَهُ، لأَنَّهُ مَلأَ أُورُشَلِيمَ دَمًا بَرِيئًا، وَلَمْ يَشَإِ الرَّبُّ أَنْ يَغْفِرَ)[1].

ولننظر ماذا حل بمدينة القدس المحتلة في القرن السادس ق.م

تقول التوراة: (10 فِي ذلِكَ الزَّمَانِ صَعِدَ عَبِيدُ نَبُوخَذْنَاصَّرَ مَلِكِ بَابِلَ إِلَى أُورُشَلِيمَ، فَدَخَلَتِ الْمَدِينَةُ تَحْتَ الْحِصَارِ. 11 وَجَاءَ نَبُوخَذْنَاصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ عَلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ عَبِيدُهُ يُحَاصِرُونَهَا. 12 فَخَرَجَ يَهُويَاكِينُ مَلِكُ يَهُوذَا إِلَى مَلِكِ بَابِلَ، هُوَ وَأُمُّهُ وَعَبِيدُهُ وَرُؤَسَاؤُهُ وَخِصْيَانُهُ، وَأَخَذَهُ مَلِكُ بَابِلَ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ مُلْكِهِ. 13 وَأَخْرَجَ مِنْ هُنَاكَ جَمِيعَ خَزَائِنِ بَيْتِ الرَّبِّ، وَخَزَائِنِ بَيْتِ الْمَلِكِ، وَكَسَّرَ كُلَّ آنِيَةِ الذَّهَبِ الَّتِي عَمِلَهَا سُلَيْمَانُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ فِي هَيْكَلِ الرَّبِّ، كَمَا

1 الملوك الثاني، الرابع والعشرون: 3-4.

تَكَلَّمَ الرَّبُّ. 14 وَسَبَى كُلَّ أُورُشَلِيمَ وَكُلَّ الرُّؤَسَاءِ وَجَمِيعَ جَبَابِرَةِ الْبَأْسِ، عَشَرَةَ آلاَفِ مَسْبِيٍّ، وَجَمِيعَ الصُّنَّاعِ وَالأَقْفِيَانِ. لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلاَّ مَسَاكِينُ شَعْبِ الأَرْضِ)[1].

فمن الواضح أن عدد أبناء إسرائيل الذين كانوا يسكنون مدينة القدس آنذاك عشرة آلاف إنسان، وهذا يعني أن نبوخذ نصر في أول مرحلة من تحرير القدس أخذ هذا العدد إلى بابل وترك أهلها الأصليين سكان الأرض فيها كما أشارت التوراة.

وهنا لا بد أن نرصد التحركات البابلية المستمرة لاستكمال تحرير فلسطين، فهذه التحركات استمرت طويلًا في حملات متتالية.

تقول التوراة: (1 وَفِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِمُلْكِهِ، فِي الشَّهْرِ الْعَاشِرِ فِي عَاشِرِ الشَّهْرِ، جَاءَ نَبُوخَذْنَاصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ هُوَ وَكُلُّ جَيْشِهِ عَلَى أُورُشَلِيمَ وَنَزَلَ عَلَيْهَا، وَبَنَوْا عَلَيْهَا أَبْرَاجًا حَوْلَهَا. 2 وَدَخَلَتِ الْمَدِينَةُ تَحْتَ الْحِصَارِ إِلَى السَّنَةِ الْحَادِيَةَ عَشَرَةَ لِلْمَلِكِ صِدْقِيَّا)[2].

ثم تقول: (4 فَثُغِرَتِ الْمَدِينَةُ [أي اخترق السور]، وَهَرَبَ جَمِيعُ رِجَالِ الْقِتَالِ لَيْلاً مِنْ طَرِيقِ الْبَابِ بَيْنَ السُّورَيْنِ اللَّذَيْنِ نَحْوَ جَنَّةِ الْمَلِكِ. وَكَانَ الْكِلْدَانِيُّونَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مُسْتَدِيرِينَ. فَذَهَبُوا فِي طَرِيقِ الْبَرِّيَّةِ. 5 فَتَبِعَتْ جُيُوشُ الْكِلْدَانِيِّينَ الْمَلِكَ فَأَدْرَكُوهُ فِي بَرِّيَّةِ أَرِيحَا، وَتَفَرَّقَتْ جَمِيعُ جُيُوشِهِ عَنْهُ. 6 فَأَخَذُوا الْمَلِكَ وَأَصْعَدُوهُ إِلَى مَلِكِ بَابِلَ إِلَى رَبْلَةَ وَكَلَّمُوهُ بِالْقَضَاءِ عَلَيْهِ. 7 وَقَتَلُوا بَنِي صِدْقِيَّا أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَقَلَعُوا عَيْنَيْ صِدْقِيَّا وَقَيَّدُوهُ بِسِلْسِلَتَيْنِ مِنْ نُحَاسٍ، وَجَاءُوا بِهِ إِلَى بَابِلَ)[3].

فهذه الحملة الثانية لنبوخذ نصر حيث أخذ في المرة ملك الإسرائيليين أما بقية من كانوا معه فقد هربوا وتشتتوا في البراري، بمعنى أنهم عادوا إلى منشئهم الصحراوي أيام كانوا مع النبي موسى عليه السلام.

1 الملوك الثاني، الرابع والعشرون: 10-14.
2 الملوك الثاني، الخامس والعشرون: 1-2.
3 الملوك الثاني، الخامس والعشرون: 4-7.

ثمّ تورد التوراة الحديث عن الحملة الثالثة للبابليين حيث تقول: (8 وَفِي الشَّهْرِ الْخَامِسِ، فِي سَابِعِ الشَّهْرِ، وَهِيَ السَّنَةُ التَّاسِعَةَ عَشَرَةَ لِلْمَلِكِ نَبُوخَذْنَاصَّرَ مَلِكِ بَابِلَ، جَاءَ نَبُوزَرَادَانُ رَئِيسُ الشُّرَطِ عَبْدُ مَلِكِ بَابِلَ إِلَى أُورُشَلِيمَ، 9 وَأَحْرَقَ بَيْتَ الرَّبِّ وَبَيْتَ الْمَلِكِ، وَكُلَّ بُيُوتِ أُورُشَلِيمَ، وَكُلَّ بُيُوتِ الْعُظَمَاءِ أَحْرَقَهَا بِالنَّارِ. 10 وَجَمِيعُ أَسْوَارِ أُورُشَلِيمَ مُسْتَدِيرًا هَدَمَهَا كُلُّ جُيُوشِ الْكِلْدَانِيِّينَ الَّذِينَ مَعَ رَئِيسِ الشُّرَطِ. 11 وَبَقِيَّةُ الشَّعْبِ الَّذِينَ بَقُوا فِي الْمَدِينَةِ، وَالْهَارِبُونَ الَّذِينَ هَرَبُوا إِلَى مَلِكِ بَابِلَ، وَبَقِيَّةُ الْجُمْهُورِ سَبَاهُمْ نَبُوزَرَادَانُ رَئِيسُ الشُّرَطِ. 12 وَلكِنَّ رَئِيسَ الشُّرَطِ أَبْقَى مِنْ مَسَاكِينِ الأَرْضِ كَرَّامِينَ وَفَلاَّحِينَ)[1].

إذًا، أصبحت القدس خرابًا حسب قول التوراة ولم يبق إلا بضعة فلاحين من العجزة والمساكين وذهب ما يسمى الهيكل وانمحى من على وجه الأرض حسب ما قالت التوراة.

وإلى هنا، ومع انتهاء سفر الملوك الثاني ينتهي التواجد الإسرائيلي في فلسطين وتحررت البلاد والعباد من فساد بني إسرائيل وعبثهم بأرض فلسطين. وظلت هكذا مدة سبعين عامًا. عاد الأمن والاستقرار إلى الأرض وعاد بناء المدن من جديد ودبت الحيوية في السكان الأصليين من كنعانيين وبطون قبائلهم.

بنو إسرائيل في بابل:

بقي الإسرائيليون في بابل ما بين 50 إلى 70 سنة لم يتوانوا عن السعي لتدمير الإمبراطورية البابلية إن كان ذلك عن طريق الإفساد في المجتمع البابلي، أو عن طريق التجسس والعمل لصالح الفرس، الذين أخذوا بالتوسع نحو العراق وبلاد الشام. وقد استخدم اليهود في بابل كل وسائل السحر والأعمال النفسية السيئة ليخربوا المجتمع البابلي ومن ثم صاروا يراسلون الملك كورش الفارسي سرًا ليأتي للقضاء على البابليين وفعلًا تمّ له ما أراد فاستطاع احتلال بابل والتوسع نحو بلاد الشام. وأراد أن يكافئ اليهود على جهودهم المبذولة من أجل مساعدة جيوشه لتدمير البابليين فسمح لبعضهم بالتسرب ثانية إلى أرض فلسطين.

1 الملوك الثاني، الخامس والعشرون: 8-12.

وقد اعترض أبناء القبائل العربية المتواجدة في بلاد الشام على التسرب اليهودي آنذاك وقد أشارت التوراة إلى ذلك بقولها: (12 لِيُعْلَمِ الْمَلِكُ أَنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ صَعِدُوا مِنْ عِنْدِكَ إِلَيْنَا قَدْ أَتَوْا إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَبْنُونَ الْمَدِينَةَ الْعَاصِيَةَ الرَّدِيَّةَ... 16 وَنَحْنُ نُعْلِمُ الْمَلِكَ أَنَّهُ إِذَا بُنِيَتْ هذِهِ الْمَدِينَةُ وَأُكْمِلَتْ أَسْوَارُهَا لاَ يَكُونُ لَكَ عِنْدَ ذلِكَ نَصِيبٌ فِي عَبْرِ النَّهْرِ)[1].

وقد ظل اليهود يحاولون مدة عشرين سنة لإعادة ما يسمى الهيكل، وأهل البلاد يعترضون، حتى جاءت جيوش الملك الفارسي داريوس، وأجبرت أهل فلسطين والقدس على قبول بناء ما يسمى الهيكل الثاني، وهذا حسب ما نصت عليه التوراة: (وقد عين أول حاكم على الجالية اليهودية شخص يدعى زربابل وهو تابع للدولة الفارسية فشرع زربابل هذا في بناء الهيكل إلا أن الأقوام المجاورة كالحوريين والحثيين والعمونيين والأدوميين احتجوا على ذلك وهددوا بالعصيان فأصدر [سحر يدس] الذي خلف قمبيز الثاني سنة 522 ق.م أمرًا بتوقيف عملية البناء ولكن دارا الأول أتاح لهم وأتموا بناء الهيكل على عهده)[2].

هذا هو المصدر الوحيد الذي تحدث عن عودة تسرب اليهود إلى فلسطين تحت حراب الفرس مع رفض سكان المنطقة بعودة هذا التسرب.

وتشير الدراسات الآثارية جميعها إلى أنه لا يوجد دليل أثري واحد على ما يسمى الهيكل الثاني.

تأليف التوراة والوعد المزعوم:

لقد أصبح من اليقين أن أولى محاولات كتابة التوراة تمت من قبل عرزا الكاتب في بابل، وإذا حسبنا الفرق الزمني بين النبي موسى عليه السلام وبين عرزا وجدناه لا يقل عن سبعمئة سنة. وخلال هذه المئات من السنين أين كتاب موسى الذي نزل عليه على شكل ألواح في سيناء؟

الواقع أن هذه السنين لم تشهد أن كتاب النبي موسى كان متداولًا بين بني إسرائيل، والمؤكد أن الكهنة وبعض الحفظة ادعوا في كل مرة أنهم عثروا على سفر الشريعة أو على سفر آخر. وظلت الحال كذلك حتى جاء القرن السادس ورحَّل بنو إسرائيل إلى بابل وهناك بدأ التفكير الجدي بصنع توراة من قبل عرزا.

1 عزرا، الرابع: 12 و 16.
2 د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، الطبعة السادسة، دمشق 2007، ص 586.

إن ما دفع عزرا لكتابة هذه التوراة أسباب عديدة منها التخبط الذي ساد بني إسرائيل بين تصديق أنفسهم بأن الله وعدهم أن يحكموا القدس إلى الأبد وبين ما جرى من نكبات كان آخرها ترحيلهم عن أرض كنعان في بابل.

يقول إسرائيل فنكلشتاين: "لكن الكارثة وقعت، تبين أن قرونًا من الجهود والآمال كانت كلها دون جدوى، استعبدت يهوذا ثانية من قبل مصر، نفس مصر التي كان الإسرائيليون قد هربوا منها. ثمّ جاء دمار أورشليم (القدس) ومعه ضربة لاهوتية فظيعة. الوعد غير المشروط ليهوه إلى داود بحكم سلالته الأبدي والمركزي في القدس أي أساس العقيدة لم يتحقق. ولا بد أن موت يوشيا ودمار القدس أحبط مؤلفي التاريخ الشنوي وأوقعهم في الياس، كيف يمكن الحفاظ على التاريخ المقدس في مثل هذا الزمن المظلم"[1]. ويضيف قائلًا: "مع الزمن بدأت تظهر تفسيرات جديدة، طبقة النبلاء والنخبة في يهوذا بمن في ذلك الأشخاص ذاتهم الذين أعدوا التاريخ التشنوي الأصلي أُسكنوا في بابل البعيدة، لما بدا وقع الصدمة يخف كانت هناك حاجة لتاريخ إسرائيل أكثر إلحاحًا وفورية"[2]. وأخيرًا يصل إلى نتيجة مفادها: "كانت إعادة كتابة تاريخ إسرائيل أفضل طريق للمنفيين لإعادة تأكيد هويتهم".

إنه يمكن أن يزودهم بصلة تربطهم بالأرض التي تسربوا إليها وادعوا أن القدس عاصمتهم المدمرة وادعوا كذلك أن لهم هيكلهم المحروق.

وقد تساءل بعض الباحثين اليهود كيف أمكن لاستقامة يوشيا وتقواه الشديدين أن يكونا بلا تأثير ويقفا عاجزين عن الحيلولة دون تجنيب القدس ذلك الدمار والغزو الدموي العنيف؟

والواقع فإن الجواب هو: إن الإسرائيليين في الأساس تسربوا إلى فلسطين وغزوها وهي أرض لها شعبها، ومن الطبيعي أن لا أحد يمنع واحدًا من تحرير بلاده والاستعانة بأي طرف آخر للمساعدة في تحرير الأرض، ويوشيا هو آخر الملوك الصالحين من نسل داود عليه السلام، حسب رأي التوراة.

1 إسرائيل فنكلشتاين ونيل اشير سلبرمان، ص 360.
2 المرجع نفسه، ص 361.

وبكل الأحوال فإنه بدءًا من القرن السادس ق.م حلّت نكبات كبيرة على فلسطين وبلاد الشام والساحل الغربي بشكل عام.

خضعت المنطقة للفرس، واحتل كورش سورية وفلسطين، وتقول المصادر إنه سمح لبعض اليهود الأسرى بالعودة لاحتلال جزء من فلسطين ويقولون إنه أعاد إليهم كنوز الهيكل التي كان قد استولى عليها نبوخذ نصر، وأمر بإعادة بناء الهيكل في القدس على نفقة بيت الملك، فعاد فريق منهم، ويرجح المؤرخون أن الذين تسربوا مرة أخرى إلى فلسطين انحصروا في أولئك الذين لم يفلحوا كثيرًا في الأرض الجديدة والمتعصبون لإعادة بناء ما يسمى الهيكل.

وتشير الدلائل إلى أن هناك عددًا غير قليل أصاب النجاح في بلاد بابل وأثري حتى أصبحت لديه ممتلكات كثيرة فآثروا البقاء وعدم المجازفة بمغامرة مجهولة.

وتقول المصادر إن اليهود الذين تسربوا إلى فلسطين زمن الفرس تجمعوا في جوانب القدس وقد تمتعوا ببعض الامتيازات زمن الفرس خاصة ممارسة شعائرهم الدينية.

وفي سنة 331 غزا الاسكندر الساحل العربي كله ووقعت فلسطين كغيرها تحت نير الاستعمار المقدوني، وعندما انقسمت مملكة الاسكندر إلى بطالسة وسلوقيين ظلت فلسطين تتأرجح بين الطرفين.

وتقول المصادر إن اليهود دون سواهم لاقوا أسوأ الحالات زمن الملك السلوقي انطيوخس الرابع 164–175 ق.م، فقد دمر هذا الملك معابد اليهود ونهب محتوياتها وأجبر اليهود على ترك عقيدتهم واعتناق الوثنية اليونانيّة.

ثمّ حل الغزو الروماني حينما تغلغل الرومان في الشرق وتغلبوا على السلوقيين في سورية وأصبحت فلسطين تحت حكم الرومان ففي سنة 64 ق.م احتل القائد الروماني بومي سورية وضمها إلى روما. وفي السنة التالية دخل بومبي مدينة القدس وجعلها تابعة لحاكم سورية الروماني.

ولم يكن اليهود في هذا الوقت أحسن حالًا مما كانوا عليه في العهد الإغريقي.

وظلت تنعكس على حياتهم الخلافات بين القادة الرومان حتى عيَّن هيرودس الآدمي ملكًا على فلسطين. واستمر حكمه على فلسطين حتى وفاته سنة 4 ميلادي. وقد بني في عهده

معبد نُسب إليه لكن الرومان فرضوا عقائدهم الوثنية على كل بلاد سورية وفلسطين والساحل.

والواقع أنه لقسوة الرومان على الشعوب قامت ثورة في فلسطين سنة 76م وكان لليهود نصيب فيها وقد أودعت القيادة في فلسطين إلى تيطوس ابن الإمبراطور فسبسيان فسيطر على الموقف وتمكن من القضاء على الثورة. ودخل القدس سنة 70م وأوقع مذبحة مريعة باليهود وخرب المدينة وأحرق معبدها وذبح الكهنة وأزيل المعبد من الوجود نهائيًا بحيث لم يبقَ أثرٌ منه يدلُّ على وجوده وقد سيق اليهود جميعهم إلى روما وبقي أبناء الشعب العربي الكنعاني في أراضيهم. فكما تخلصوا أول مرة من اليهود في زمن نبوخذ نصر تخلصوا مرة أخرى منهم على يد الرومان.

وفي سنة 132–133 أصدر هدريان الملك الروماني في فلسطين قرارًا بجعل القدس مستعمرة رومانية وحرم على اليهود سكناها وبدل اسمها إلى إيليا كابيتولينا. وأقيم معبد للإله جوبتير في المكان الذي يعتقد أن المعبد اليهودي كان فيه.

إن أهم ما نستخلصه من هذا الفصل أن سكان فلسطين الأصليين كانوا يتكاثرون يومًا بعد يوم ويتمركزون في أرضهم في حين أن اليهود كانوا يتقلصون بسبب أنهم طارئون على فلسطين وبسبب ما قاسوا من ويلات بسبب فسادهم وإفسادهم.

ولم يشكل اليهود أكثرية في فلسطين في أي عصر من العصور، والأغرب من ذلك أن التوراة تشير إلى حملات متتالية كان المقصود منها أسرهم وتشتيتهم في بلاد كثيرة كي لا يفكروا مرة أخرى باستعمار أجزاء من فلسطين أو التسرب إليها.

وتقول المصادر إن الأدوميين ومعهم الأنباط عادوا إلى أراضيهم في القدس وما جاورها على الرغم من حكم الفرس الذي شجع اليهود على التسلل إلى فلسطين مرة ثانية.

وعندما ندرس واقع فلسطين السكاني أيام التحرر العربي الإسلامي نرى أن اليهود لا يتواجدون في فلسطين ولا في القدس فجميع السكان من الكنعانيين واليبوسيين والآراميين وغيرهم وعندما جاء السيد المسيح آمن به شعب فلسطين.

ودومًا كانوا يرفضون التواجد اليهودي في فلسطين والقدس تحديدًا لأن الشعب الأصيل في أرضه عانى من فساد وإفساد اليهود طوال قرون مضت.

ويعلق الدكتور أحمد سوسة على ذلك بقوله: "إن اليهود لم يتركوا أي كيان سياسي يهودي خاص بهم في تاريخ فلسطين القديم ولكنهم تركوا ديانة يهودية متأخرة مقتبسة من تراث كنعاني وبابلي وآرامي".

وليس للنبي موسى وعقيدته أي علاقة بهم، وأن عهد الملوك بما فيه عهد الملك داود والملك سليمان عليهما السلام كان عهدًا كنعانيًا بحضارته ولغته وثقافته.

وفشل اليهود في إنشاء مملكة زمنية يهودية دائمة في فلسطين، ويعود ذلك إلى عدة عوامل من أهمها أن الكيان اليهودي لم يقم على أساس قومي راسخ أصيل بثقافته ولغته وتقاليده ووطنه لأن اليهود لم يملكوا أي تراث خاص فمعظم ما مارسوه من لغة وثقافة وديانة وتقاليد وعادات مقتبس من الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين. فكيانهم قائم على العقيدة، والعقيدة عرضة للتغير والتبدل على خلاف ما هي القومية من ثبات لاستنادها إلى ثقافة ولغة واحدة ووطن ثابت.

أما العامل الثاني: فهو أن كيان "إسرائيل" كان قائمًا على الاغتصاب والاعتداء على شعب آمن له قوميته وثقافته وتقاليده وحكمه عاش في فلسطين منذ خمسة آلاف عام. وقد جاء اليهود عازمين على طرد هذا الشعب من دياره وأخذ محله زاعمين أن إلههم يهوه أمرهم أن يبيدوا هذا الشعب وأن يحلوا محله وأن الرب وعدهم أنه سيحارب بنفسه من أجل تحقيق ذلك لهم[1].

1 د. أحمد سوسة، ص 591.

الفصل الخامس

ماذا تعني الأرض المباركة فلسطين في الرؤية الإسلامية؟

ماذا تعني الأرض المباركة في القرآن الكريم؟

من البدهي أن أول ما يخطر ببالنا، ويستحضر عقولنا ونفوسنا وأرواحنا سورة الإسراء فهذه السورة المكية نزلت على قلب نبينا محمد ﷺ وهو في مكة في أثناء اشتداد المعاناة والعذاب من قبل قريش.

فبعد أن حاول رسول الله ﷺ أن يهدي أهل الطائف وجد العنت والرفض لديهم، بل دفعوا أولادهم وصبيانهم الصغار برمي المصطفى ﷺ بالحجارة، ما جعله يلجأ إلى بستان هو وزيد بن حارثة. وعندما عاد إلى بيته في مكة، أكرمه الله سبحانه وتعالى بالإسراء والمعراج؛ ليريه من آياته العظمى ومن المعجزات ما لم يخطر على بال بشر.

وتمت معجزة إسرائه باختيار الله سبحانه المسجد الأقصى؛ ليكون هدفه الأول من الإسراء، ثمّ ليعرج به من بيت المقدس إلى السماء، ثمّ يعود فيصلي بالأنبياء، ثمّ يُعاد إلى بيته في مكة. كل هذه التفاصيل موجودة في حديث صحيح قاله النبي ﷺ.

وبعيدًا عن التفاصيل عن الرحلة بالذهاب والإياب والمعجزة التي أرادها الله سبحانه وتعالى، نتوقف عند الآيات الأولى من سورة الإسراء وعند بعض الآيات من سورة الحشر؛ لندرك كثيرًا من المعاني المتعلقة بالأرض المباركة والقدس ومسجدها الأقصى؛ ولندرك أبعاد الصراع بيننا وبين العدو الصهيوني الجاثم على أرضنا منذ ثماني وستين سنة.

يقول تعالى في سورة الإسراء:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ 1 وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً 2 ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا 3 وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا 4 فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً 5 ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم

بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا 6 إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا 7 عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا 8 إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا 9 ﴾[1].

هذه الآيات تختزل الصراع كله، الصراع العقيدي أولًا بيننا وبين اليهود والصراع على الأرض المباركة وخاصة المسجد الأقصى.

وندعو الله سبحانه أن نوفق في فهم هذه الآيات فهمًا دقيقًا نصل به إلى المأمول.

إن الآية الأولى تقول: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾.

أولاً: من الواضح أن الله سبحانه اختار رحلة الإسراء من مكانين مقدسين هما المسجد الحرام والمسجد الأقصى، فإذا فتشنا كتاب الله سبحانه لا نجد آية تربط بين مكانين باسميهما الصريحين كما في هذه الآية.

فلماذا ربط الله سبحانه بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في حادثة مثل هذه الحادثة؟، ولماذا من بين الأنبياء جميعًا اختار النبي محمدًا ﷺ ليكون هو المنفذ لأمر الله ولإرادته؟

لماذا لم يختر أي مكان آخر في مصر أو العراق أو تركيا أو إيران أو غيرها من الأماكن؟ هنا لا بد أن نشير إلى أن الله سبحانه سمّى أرض بيت المقدس وما حوله بالأرض المباركة منذ ما قبل وجود البشرية؛ فالله سبحانه يقول عن إبراهيم ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ 71 ﴾[2]؛ **ففلسطين أرضٌ باركها الله منذ الأزل، والمسجد الحرام مكان مقدّس حتى قبل ظهور النبي إبراهيم؛ لأن النبي إبراهيم أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم.**

1 القرآن الكريم، سورة الإسراء: 1-9.
2 القرآن الكريم، سورة الأنبياء: 71.

إذًا، فالمكانان هما الوحيدان في الأرض اللذان خصهما الله بالقِدم البعيد، وخصّهما بالمباركة والتقديس حتى قبل ظهور الأنبياء.

إن الله سبحانه يخبرنا بأنَّه نجَّى إبراهيم ولوطَ إلى الأرض المباركة؛ لأن فيها شعبًا موحدًا تقبل إبراهيم تقبلًا عظيمًا. ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يذهب إلى مكة ليرفع قواعد البيت الحرام. فكانت إرادة الله وعلمه وتخطيطه تقضي بأن يذهب إبراهيم عليه السلام من الأرض المباركة إلى البيت الحرام، فبدأت دائرة التوحيد تتمدد بإسراء إبراهيم على الأرض من هنا إلى هناك. ويرفع قواعد البيت ويدعو الناس للحج الذي هو فريضة على كل من يدعي أنه من أتباع إبراهيم.

وما بين النبي إبراهيم وولده محمد ﷺ أنبياء كثر، وكلهم من نسل النبي إبراهيم؛ إسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وشعيب وأيوب، ثم جاء موسى وهارون، ثم داود وسليمان وإلياس والمسيح عليهم السلام، وكلهم أبناء المنطقة؛ أي أبناء بلاد الشام والحجاز.

ومرت القرون إلى أن بعث الله محمدًا ﷺ؛ ليختم النبوات برسالة عالمية، وتكتمل الدائرة النبوية بنبوة محمد ﷺ التي بدأها إبراهيم عليه السلام. فكان ذهاب إبراهيم من الأرض المباركة إلى البيت الحرام البداية، لكن العودة من البيت الحرام إلى بيت المقدس جاءت للنبي محمد ﷺ في إسراء سماوي؛ لتكتمل الدائرة.

لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ 68﴾[1].

فمحمد ﷺ هو أولى الناس بإبراهيم من حيث النبوة والميراث ومنحه المعجزات، وليس هؤلاء الذين يدعون زورًا وبهتانًا أنهم من نسل إبراهيم، وأن الله وعد إبراهيم بميراث الأرض المباركة.

1 القرآن الكريم، سورة آل عمران: 68.

إن نسل إبراهيم كما قال الله في القرآن الكريم هم الذين اتبعوه؛ أي الذين لبوا نداءه في الحج لذلك قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ 67﴾[1].

ولذلك أيضًا قال تعالى عن هؤلاء اليهود: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ 69﴾[2].

لقد حاولوا أن يضلوا المسلمين بقولهم إنهم من نسل إبراهيم، وأن إبراهيم أول عبراني وأن الله وعده بالأرض المباركة، وكل ذلك ليضلوا الناس، ويبعدوهم عن الحقيقة.

ثانيًا: لقد قال كثيرون إن المسجد الأقصى ـ بوصفه مسجدًا ـ لم يكن موجودًا عندما أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، فكيف أطلق الله سبحانه عليه اسم المسجد؟

إن الله سبحانه أطلق على المسجد الحرام اسم المسجد، وأطلق هذا الاسم على المسجد الأقصى؛ فالمسجد الحرام عند نزول سورة الإسراء لم يكن مسجدًا، وكان فيه ثلاثمئة وستون صنمًا على عدد قبائل العرب، ولم يكن يُسجد به فأطلق عليه اسم مسجد.

والمسجد الأقصى لم يكن مقامًا وقد أطلق عليه هذه الصفة باعتباره أرضًا مقدسة، خُصت للسجود، فكان إطلاق الصفة على المسجدين إرهاصًا مستقبليًا وإخبارًا إلهيًا بأنهما سيكونان مسجدين يُسجد فيهما لله سبحانه وتعالى.

وعند فتح مكة حُطمت الأصنام، ونظفت الكعبة، وعادت الكعبة والبيت الحرام للركّع السجود كما دعا إبراهيم عليه السلام. وعند فتح بيت المقدس تعرف الخليفة عمر رضي الله عنه على المكان المقدس المعروف، وهناك أشار ببناء مسجد فوق الرقعة التي أسري برسول الله ﷺ إليها. وقد بشر الله المسلمين بأنهم سيدخلون البيت الحرام، وبشرهم بأنهم سيدخلون المسجد الأقصى فتمّ وعد الله في الأولى، وسيتم تحقيق الوعد في الثانية.

1 آل عمران: 67.
2 آل عمران: 69.

يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا 27﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا 7﴾[2].

ثالثًا: ويقول تعالى: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾؛ فالمسجد الأقصى مبارك باعتباره جزءًا من الأرض التي باركها الله للعالمين، وقد أقرت البركة لما حول هذا المسجد.

وقد وردت المباركة في آيات أخرى ودلت على أن مكان المسجد الأقصى وما حوله أرض باركها الله سبحانه وتعالى منذ ما قبل وجود الأنبياء، وهناك أحاديث للمصطفى ﷺ تشير إلى أن أول مسجد بُني على الأرض هو البيت الحرام، وبعده بأربعين سنة المسجد الأقصى.

رابعًا: بعد الحديث عن حادثة الإسراء ينتقل بنا كلام الله سبحانه إلى موضوع آخر في ظاهره لا رابط بينه وبين الآية الأولى:

يقول تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا 2﴾[3].

إننا نلاحظ الانتقال من موضوع لآخر، فاختلفت المعاني واختلفت نهاية الآيات. في الآية الأولى حديث عن الإسراء وفي الثانية حديث عن نبي الله موسى وكتابه الذي فيه هدى لبني إسرائيل وأمرًا بألا يتخذوا من دون الله وكيلا.

ولو نظرنا إلى الآية الأولى لرأينا أنها تنتهي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. بينما الآيات اللاحقة كانت تنتهي بنصب كلمة، نلاحظ وكيلًا، شكورًا، مفعولًا، نفيرًا... إلخ. وكأننا ندخل عالمًا آخر غير عالم الآية الأولى.

1 سورة الفتح:27.
2 الإسراء:7.
3 الإسراء: 2.

إن النبي موسى عليه السلام بعثه الله لبني إسرائيل، وأنزل عليه كتابًا فيه هدىً لبني إسرائيل. وأهم ملامح هذا الهدى الأمر بألا يتخذوا من دون الله وكيلًا.

لكن بني إسرائيل اتخذوا من دون الله وكيلًا، فعبدوا العجل، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا مثل آلهة بقية القبائل التي كانت تسكن صحراء سيناء، وانحازوا دومًا عن عبادة الله الواحد الأحد إلى عبادة الأصنام والآلهة الصنمية والوثنية التي كانت لدى الشعوب.

ثم يقول الله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا 3 ﴾[1].

إذًا، فبنو إسرائيل جزء من تلك الذرية التي حملها نوح معه في أثناء حادثة الطوفان، وهذا تذكير لبني إسرائيل بنوح الذي كان عبدًا شكورًا، بينما هم جحدوا بنعمة الله وأولها إتيان نبيهم موسى الكتاب الذي فيه هدى لهم.

خامسًا: ويقول تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا4 ﴾[2]. وهنا لا بد من التوقف طويلًا عند هذه الآية فهي بداية جوهر القضية الكبرى وهي قضية الصراع بين جنود الرحمن وأتباع الشيطان من هؤلاء.

إن قضاء الله سبحانه هو حكم إلهي لا راد له، فقد كتب عز وجل في اللوح المحفوظ وفي كتاب موسى عليه السلام وفي القرآن الكريم أن بني إسرائيل سيفسدون مرتين مقترنتين بعلو كبير في كل مرة من الإفساد.

وقد اختلف المفسرون وكثير من العلماء حول هذين الإفسادين المترافقين بالعلوين، فقال بعضهم إن ذلك حدث في التاريخ القديم عندما استباحهم نبوخذ نصر الكلداني البابلي، وعندما استباحهم الرومان. وقد ظل كثيرون معتقدين بهذه التفاسير بشكل لا نقاش فيه.

وهنا نتوقف مع الآيات اللاحقة لنرى خلاف ذلك من ما قاله المفسرون.

1 الإسراء: 3.
2 الإسراء: 4.

والله في القرآن الكريم يقول: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا 5 ﴾[1]. فما في هذه الآية يناقض ما قاله المفسرون؛ لأن الله سبحانه قال ﴿ عِبَادًا لَّنَا ﴾، ونبوخذ نصر وقومه كانوا وثنيين. فكيف يصفهم الله سبحانه بـ﴿ عِبَادًا لَّنَا ﴾ ؟ خاصة أنه (لنا) وهذه خاصية العباد حيث خصهم الله سبحانه بنسبتهم إليه من حيث العبودية.

ثمّ إن التاريخ يذكر أن نبوخذ نصر عندما حرّر فلسطين والقدس من المتسربين الإسرائيليين، دمر معبدهم، وأخذ منهم اثني عشر ألفًا، وعلى رأسهم الملك اليهودي صدقيا. إذًا، ما قام به هو أكثر من الجوس خلال الديار؛ لأن قوله جاسوا خلال الديار يعني أنه لم يحدث تدمير ولا قتل ولا سبي.

وهنا لم تحدد الآية أين هذه الديار، ويبدو أن المقصود هو الأماكن التي يسكنها اليهود، وهي كثيرة منها خيبر وفدك وتيماء، ومنها في بعض أجزاء فلسطين قرب المسجد الأقصى.

ثم تأتي الآية التالية ليقول سبحانه: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا 6 ﴾[2]. والواقع أن الكرة لم تعد لبني إسرائيل ليغلبوا البابليين أو ينتصروا عليهم. فكيف نقول إن الإفساد الأول مع العلو كان في زمن البابليين؟ إن بني إسرائيل بعد نكستهم على أيدي البابليين لم تقم لهم قائمة بل توالت عليهم النكبات نكبة بعد نكبة؛ فبعد البابليين بنحو ثلاثمئة سنة جاءت غزوة الاسكندر على المنطقة، ثمّ جاء الرومان وكان أسوأ حظ في تلك الفترة هو حظ بني إسرائيل، فقد شتتوا مرارًا، وهدمت معابدهم، وأُخذوا أسرى إلى بلاد الله الواسعة.

إن إفسادهم الأول ترافق مع علو، والعلو يعني القوة والسيطرة. فهل كان بنو إسرائيل عندما سباهم نبوخذ نصر في علو وقوة؟ فلو كانوا في قوة وعلو ومنعة لما استطاع البابليون

1 الإسراء: 5.
2 الإسراء: 6.

سبيهم وتحطيم وجودهم، وكذلك عندما جاء الاسكندر وجاء الرومان لم يكن اليهود في قوة ومنعة حتى يدفعوا الرومان وغيرهم من الغزاة وينتصروا عليهم.

إذًا، فهذا التفسير غير صحيح، ولا تشير إليه آيات سورة الإسراء. فإذا كان هذا التفسير غير صحيح ولا يتوافق مع معطيات التاريخ فما هو التفسير الصحيح؟

إننا هنا نحتاج لقراءة سورة ثانية حتى نتبين حقيقة الإفساد وحقيقة العلو المرافق وهذه السورة هي سورة الحشر.

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ٢ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ٣ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ 4﴾[1].

ويقول تعالى في السورة نفسها: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ 14﴾[2] **الحشر** 14.

إذًا، بدأ الصراع بين اليهود والمسلمين بدءًا من هناك في المدينة المنورة وامتد إلى الشمال إلى خيبر وتيماء وفدك. ثمّ امتد شمالًا إلى المسجد الأقصى وبيت المقدس وفلسطين، لننظر إلى كلمات الآيات السابقة بتمعن ودقة.

إن الله سبحانه هو الذي أخرج الذين كفروا من اليهود من ديارهم ليس بقوة المسلمين ولا بقوة حصونهم وقلاعهم.

1 القرآن الكريم، سورة الحشر: 2-4.
2 الحشر: 14.

لقد وصل اليهود إلى ذروة القوة في الجزيرة العربية، فكانوا عندما جاء الإسلام يتحكمون بالاقتصاد والمال والربا، وقد ذكرت الدراسات التاريخية أن هؤلاء اليهود كانوا يؤثرون على مجرى الأحداث بين الأوس والخزرج في المدينة، ثم إنهم بنوا قلاعًا وحصونًا شمال المدينة في الطريق إلى بلاد الشام، وتحكموا بقوة بالطرق التجارية وكانوا يملكون أقوى الأموال من الذهب.

لقد أفسدوا بين القبائل حتى اشتعلت الحروب الدامية بين الأوس والخزرج، وأفسدوا الأخلاق، فكانوا يتحالفون مع المشركين والمنافقين، ووصل بهم العلو أنهم ظنوا أن حصونهم وقلاعهم سوف تمنع انكسارهم. لكنهم كسروا وانهزموا. على الرغم من أن المسلمين عندما هاجموا حصونهم في خيبر لم يكن يخطر ببالهم أنهم سينتصرون عليهم، لكن الله سبحانه قذف في قلوبهم الرعب. وقد أتاهم من حيث لم يحسبوا حسابًا أتاهم من خلال العامل النفسي، وليس من خلال قوة جيوش المسلمين وأسلحتهم.

لقد قذف في قلوبهم الرعب فانهارت قواهم وسقطت قلاعهم وحصونهم، فصاروا يخلعون الأبواب والنوافذ وكل المتاع، ويحملونها على حميرهم؛ ليرحلوا من تلك الديار التي كانوا فيها. وقد سمح لهم المسلمون بالمغادرة بعد انتصارهم عليهم، فراحوا يخربون ديارهم بأيديهم، ويساعدهم في التخريب الجيش المنتصر من المسلمين. إذًا، ذلك هو الإفساد الأول. وذلك هو العلو المترافق بالقوة.

ولكن المعركة لا تنتهي عند هذا الحد؛ ففتح خيبر وما جاورها من حصون اليهود كان المقدمة المادية. لكن النهاية الواقعية المعنوية تمّت بعد خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما فتح بيت المقدس، فدخلت جيوش المسلمين المنطقة دون قتال، ومنع اليهود من السكن في بيت المقدس على طلب بطريرك القدس صفرونيوس.

إذًا، فإن كلمة عباد لنا تنطبق على المسلمين الذين أنهوا الإفساد الأول والعلو الذي كان عليه بنو إسرائيل... فقد جاس المسلمون خلال ديارهم وأذلوهم إذلالًا كبيرًا.

ومنذ ذلك الوقت وحتى القرن العشرين لم تقم قائمة لليهود، صحيح أن إفسادهم لم يتوقف، ولكن هذا الإفساد لم يترافق بعلو وحكم، إلى أن حان الوقت فساعدتهم الدول الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا ثمّ أمريكا على إقامة دولة لهم، اغتصب فيها اليهود الأرض الفلسطينية على مراحل، وفي سنة 1967 احتلوا الضفة الغربية بما فيها الجزء الشرقي من مدينة القدس إضافة لما احتلته من أراضٍ عربية أخرى.

وعندما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا 4﴾[1]؛ فالمرة الثانية تنطبق على احتلال اليهود لأرض فلسطين وإقامة ما يسمى «دولة إسرائيل» على أراضيها. حيث مُولوا بأموال وبنين؛ فالمال الأمريكي وكذلك الألماني ورأسمال الشركات الكبرى العملاقة يجير لصالح الكيان الصهيوني، وقد ازدادت الهجرة اليهودية إلى فلسطين؛ فمن دول الاتحاد السوفياتي المفكك هاجر مليون ونصف شخص إلى فلسطين، بمعنى أنهم مُولوا بأموال وبنين، ثمّ أصبحوا أكثر نفيرًا بامتلاكهم السلاح النووي والقوة العسكرية الضاربة المتفوقة على القوى العسكرية العربية، وخاصة أنها تستخدم تقنيات أحدث وإمكانات فنية أقوى.

ولنلاحظ واقع العلو الإسرائيلي اليوم؛ فالنظام العربي الرسمي عاجز عن التصدي لهذا العدوان وهذا الاحتلال، والغزو الثقافي والاقتصادي الصهيوني وصل إلى عددٍ من الأقطار العربية والإسلامية، والإعلام الصهيوني ما زال بقوته يؤثر في عقول الغربيين من الناس، ويحرفهم عن الحق. وهذا يعني أن الإفساد الصهيوني وصل لذروته مترافقًا مع قوة صهيونية يهودية واضحة.

وهنا يرتبط هذا الإفساد وهذا العلو باحتلال القدس والمسجد الأقصى، مسرى رسول الله ﷺ. لقد فتح الرسول ﷺ خيبر وبقية المناطق التي كان يسكنها هؤلاء المفسدون من اليهود، ولكن علينا أن نعلم أن القدس شكلت حسب كاتب التوراة وزعماء اليهود الذين أتوا بعد كتابة التوراة، الرمز السياسي والديني لهم.

1 الإسراء: 4.

وهؤلاء الذين كتب الله عليهم الجلاء من خيبر وما جاورها، كانت القدس بالنسبة إليهم تُشكل القبلة السياسيّة والدينيّة، فمن المفروض أن يتم إنهاء رموزهم التي صنعها لهم كاتب التوراة وزعماؤهم السياسيون والدينيون.

وبعد القضاء على وجودهم في الجزيرة العربية تابع المسلمون زحفهم باتجاه الشام، ومنها فلسطين وذلك في عصر الخليفة أبي بكر الصديق وعصر الخليفة عمر رضي الله عنهما.

وبعد موت رسول الله ﷺ بست سنوات، استطاع المسلمون تحرير بيت المقدس والأقصى، وطرد من تبقى من اليهود طردًا لا رجعة فيه، ودخل المسلمون القدس كما دخلوا خيبر، وأظهر الله الحق على الباطل اليهودي، لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يُذل فيها اليهود إذلالاً كبيرًا وذلك قضاءٌ من الله سبحانه وتعالى.

وقد قضى الله سبحانه أن يرد لليهود الكرة على العرب والمسلمين؛ وذلك لأسباب كثيرة منها تخلي المسلمين عن مبدأ الجهاد، والتمزق الذي حصل بينهم منذ انهيار الدولة العباسية وحتى اليوم، والتفريط بالمقدسات، والاستكانة للدنيا والمال والمتاع؛ لذلك قوي هؤلاء اليهود بسبب ضعف الأمة وتشرذمها وتفككها وموالاة الغرب المستعمر. لذلك، نرى اليوم هذا الكيان الإسرائيلي يستقوي على العرب والمسلمين، ويستعين بالقوة العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية؛ للحفاظ على وجوده قويًا فوق أرض العرب والمسلمين.

ويقول تعالى: ﴿ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فلها .. 7 ﴾[1]. بمعنى أنكم إن فعلتم خيرًا فهو لأنفسكم، وإن أسأتم أيضًا لأنفسكم، وكل ذلك لن يرد قضاء الله الذي حكم به في كتابه عليهم؛ لذلك أتبع الجزء هذا من الآية بالجزء التالي بقوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا 7 ﴾[2].

1 الإسراء: 7.
2 الإسراء: 7.

وفي هذا السياق علينا أن نلاحظ الأمور التالية:

في الآية الخامسة قال تعالى: ﴿ ...عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ... 5 ﴾[1].

في الآية السابعة قال تعالى: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ **. والواو هي واو الجماعة عائدة على عباد لنا.**

إذًا، في المرتين إن الذين ينتصرون على هؤلاء المفسدين هم (عباد لله) أي طرف واحد هو نفسه في الآيتين الخامسة والسابعة.

في سورة الحشر قال تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعبَ﴾ **وفي الآية السابعة قال:** ﴿لِيَسُوُٓاْ وُجُوهَكُم﴾ **؛ فالرعب إحباط وذل وإساءة الوجه ذل وإحباط.**

ونلاحظ أن الآية الخامسة ورد فيها قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا﴾، **و** ﴿فَجَاسُواْ﴾، **وهي أفعال ماضية بينما في الآية السابقة جاء قوله** ﴿لِيَسُوُٓاْ﴾، ﴿وَلِيَدخُلُواْ﴾، ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾، **وهي أفعال مضارعة، وهذا يدل في الآية السابعة على الاستمرار المستقبلي ليدخلوا وليتبروا، وهذا المستقبل هو مستقبل الأمة القادم في انتصارها على هؤلاء المفسدين.**

ونلاحظ أنه في الآية الخامسة قال: ﴿فَجَاسُواْ خِلَالَ الدِّيَارِ﴾، **بمعنى لم يدمروا ولم يسفكوا دم أحد؛ لأن القدس سُلمت دون حرب، وفتحها الخليفة عمر** رضي الله عنه **دون قتال، بينما في الآية السابعة قال** ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ ؛ **فالوضع الآتي مختلف؛ لأن المسلمين لم يجوسوا خلال الديار جوسًا، بل يسوؤون وجوه هؤلاء المحتلين، بمعنى تُذل نفوسهم أولًا، ثم يدخل المسلمون المسجد الأقصى منتصرين، ثم يدمرون كل ما ارتفع من علو وقوة هؤلاء اليهود.**

إن الواقع يشير إلى عدة معارك حدثت كان اليهود فيها أذلاء لم يحققوا أي انجاز فيها، وهذا هو الذي يعني إساءة الوجه، في سنة 1973 صاروا يصرخون، ويستنجدون بالولايات

1 الإسراء: 5.

المتحدة الأمريكية في سنة 1982، وبعد خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان ظهرت قوى إسلامية ووطنية كسرت عنجهية العدو، وفي سنة 2000 هرب الجنود الصهاينة من الجنوب، بسبب ضربات موجعة للمقاومة، وفي سنة 2006 انكسر الجيش الصهيوني نفسيًا وأمنيًا وعسكريًا.

وفي سنوات 2008 و 2012 و2014 استطاع الشعب الفلسطيني الصمود في غزة، ولم يترك مجالًا واحدًا يحقق فيه العدو أيّ انتصار، والمقاومة ذات الرؤية الإسلامية تزداد قوة وصلابة بالرغم من الحصار، وعلى المستوى الأمني انكشفت خلايا التجسس العديدة في لبنان وكان ذلك نكسة لأمن الكيان الغاصب.

كل ذلك عبارة عن إرهاصات بالنصر القادم بإذن الله تعالى؛ لأن هذا يعني إذلال نفوسهم وإساءة وجوههم، ولم يبق سوى المعركة الكبرى التي يتحرر فيها المسجد الأقصى، وتتحرر فيها فلسطين، ويدمر كل علو هؤلاء وجبروتهم.

ولننظر إلى قوله تعالى في الآية 104من سورة الإسراء: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا 104﴾[1].

ووعد الآخرة هو الوعد الذي قطع في الآيات الأولى من سورة الإسراء، وتحديدًا هو وعد الآخرة في الآية السابعة. ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ **؛ أي جمعناكم في أرض فلسطين إن أردتم أو لم تريدوا؛ لأن قضاء الله وحكمه سيتم بالانتصار للمسلمين على المحتلين.**

ولننظر إلى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ **. ولننظر إلى قوله تعالى:** ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ **؛ فالمسجد في الآية التالية معرّف بـ(أل)، وهو مربوط بالمسجد الأقصى الذي ورد في الآية الأولى.**

1 الإسراء: 104.

ولكن قد يسأل سائل: لقد دخل الخليفة عمر رضي الله عنه والمسلمون القدس، ولم يكن هناك بناء للمسجد، إنما هناك بقعة مقدسة يطلق عليها المسجد الأقصى، فهل يعني قوله تعالى كما دخلوه أول مرة أن الأقصى سيُهدم وسيدخله المسلمون كونه بقعة وليس بناء؟

نقول: ربما يحصل ويفجر اليهود الأقصى، ويدخله المسلمون دون بناء، إن ذلك ليس مهمًا بقدر أهمية وجود البقعة المقدسة، فإذا ما حُرر فعملية البناء سهلة، بل هي أسهل مما نتصور، لكن المهم الدخول إلى بقعة المسجد الأقصى منتصرين تحت راية التوحيد. والله أعلم بماذا تجيء الأيام والسنون القادمة؛ لأن اليهود حفروا تحت أسوار الأقصى والحرم القدسي الشريف كله، وقد يلحق الضرر هذا المكان ويُدمر بسبب الحفريات.

مكانة القدس والأقصى في السنة النبوية الشريفة:

من الواضح عندما نقرأ سيرة المصطفى محمد ﷺ، نجد توجهًا نبويًا واضحًا تجاه بيت المقدس، وخاصة بعد نزول سورة الإسراء وحادثة الإسراء والمعراج التي ربطت بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وربطت المسجد الأقصى بالسماء. وقد ذكرت السيرة أن اهتمام الرسول ﷺ لم ينقطع تجاه بيت المقدس والمسجد الأقصى.

فكان التوجه الأول، وهو توجه عملي من خلال معركة مؤتة بين المسلمين والرومان وحلفائهم، ومن المعروف أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا في ثلاثة آلاف نفر في هذه الغزوة. وقد استشهد فيها زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحه وعدد آخر من أفراد الجيش.

ثم بعث رسول الله ﷺ بسرايا عديدة باتجاه جنوب فلسطين أي في شرقي الأردن، فكانت منها سرايا أسامة بن زيد وغيره، ثم جاءت الغزوة الكبرى وهي غزوة تبوك التي اجتمع فيها أربعون ألفًا من المسلمين، ولم يحدث قتال؛ لأن الروم عندما شعروا بجدية المسلمين عادوا إلى حصونهم وبعض المدن.

وعندما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، كان قد جهز جيشًا يقوده أسامة بن زيد يتوجه لتأديب القبائل الموالية للروم في بعض مناطق الأردن. وبعد ذلك أنفذ الجيش بأمر أبي بكر الصديق، وعاد منتصرًا، وبعد انتهاء حروب الردة بدأت مرحلة تحرير واسعة لأراضي العرب من الشام والعراق، فكانت معارك فحل وقيسارية وأجنادين واليرموك والواقوصة، ومات الخليفة أبو بكر، وتولى عمر رضي الله عنهما الخلافة، وفي زمنه فتحت القدس وفلسطين، ومن ثمّ بني مسجد عمر وفي عصر عبد الملك بن مروان وابنه الوليد تمت عمارة المسجد الأقصى وعمارة مسجد قبة الصخرة.

لن ندخل في تفاصيل هذه الأحداث؛ لأن كثيرًا من الباحثين قد تناولوها، وتناولوا فيها توجه النبي ﷺ المبكر تجاه بيت المقدس والمسجد الأقصى، وسنكتفي بإيراد الأحاديث التي وردت في كتب الصحاح والسنن عن رسول الله ﷺ، وهذه الأحاديث تخص بيت المقدس والمسجد الأقصى؛ لنكون على بيّنة ووضوح لهذه الأهمية في التوجه النبوي الشريف؛ ولنكون واعين لمخاطر الهجمة الصهيونيّة والاستقواء الدائم لتحرير هذه الأرض المباركة والقضاء على إفسادهم.

الحديث الأول:

(عن ميمونة مولاة النبي ﷺ قالت: يَا نَبِيَّ اللهِ أَفْتِنَا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَقَالَ: أَرْضُ الْمَنْشَرِ، وَالْمَحْشَرِ ائْتُوهُ فَصَلُّوا فِيهِ فَإِنَّ صَلَاةً فِيهِ كَأَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ. قَالَتْ: أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يُطِقْ أَنْ يَتَحَمَّلَ إِلَيْهِ أَوْ يَأْتِيَهُ؟ قَالَ: فَلْيُهْدِ إِلَيْهِ زَيْتًا يُسْرَجُ فِيهِ، فَإِنَّ مَنْ أَهْدَى لَهُ كَانَ كَمَنْ صَلَّى فِيهِ). رواه أحمد 463/3/6 وابن ماجة 429/1.

الحديث الثاني:

عن مَعْقِلِ بْنِ أَبِي مَعْقِلٍ الْأَسَدِيِّ قَالَ (نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَتَيْنِ بِبَوْلٍ أَوْ غَائِطٍ). سنن أبي داود، كتاب الطهارة/10.

والقِبْلَتَين: الكعبة وبيت المقدس.

الحديث الثالث:

(عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو وَهُوَ فِي حَائِطٍ لَهُ بِالطَّائِفِ يُقَالُ لَهُ الْوَهْطُ ... فَقُلْتُ بَلَغَنِي عَنْكَ حَدِيثٌ أَنَّ مَنْ شَرِبَ شَرْبَةَ خَمْرٍ لَمْ يَقْبَلْ اللهُ لَهُ تَوْبَةً أَرْبَعِينَ صَبَاحًا وَأَنَّ الشَّقِيَّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَأَنَّهُ مَنْ أَتَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ فِيهِ خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ مِثْلَ يَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ...). مسند أحمد بن حنبل 6606.

الحديث الرابع:

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ (مَنْ أَهَلَّ مِنَ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى بِعُمْرَةٍ أَوْ بِحَجَّةٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ). مسند الإمام أحمد 299/6.

وفي سنن ابن ماجة: (مَنْ أَهَلَّ بِعُمْرَةٍ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ كَانَتْ لَهُ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنْ الذُّنُوبِ). سنن ابن ماجة كتاب المناسك/3002.

وقد أحرم منه عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهمت، كما روي في كتاب الأنس الجليل صفحة 146.

الحديث الخامس:

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا، قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ، (أَيُّ الْخَلْقِ أَوَّلُ دُخُولًا الْجَنَّةَ؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ، قَالَ: يَا نَبِيَّ الله ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ الشُّهَدَاءُ، قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ مُؤَذِّنُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَ يَا نَبِيَّ اللهِ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ مُؤَذِّنُ مَسْجِدِ الْحَرَمِ؟ قَالَ يَا نَبِيَّ اللهِ ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ : ثُمَّ مُؤَذِّنُ مَسْجِدِي هَذَا، قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: سَائِرُ الْمُؤَذِّنِينَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ). الفوائد لأبي بكر الشافعي رقم 891.

الحديث السادس:

حَدِيثُ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَخْرَجَهُ الْبَزَّارُ وَالطَّبَرَانِيُّ مَرْفُوعًا: (الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ، وَالصَّلَاةُ فِي مَسْجِدِي بِأَلْفِ صَلَاةٍ، وَالصَّلَاةُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِخَمْسِ مِائَةِ صَلَاةٍ) قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ: قَالَ الْبَزَّارُ إِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

الحديث السابع:

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى). رواه البخاري، في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

وللحديث طرق كثيرة تبلغ ست عشرة طريقة، وهو من الأحاديث المسندة الصحيحة بسندها ومتنها.

الحديث الثامن:

قال رسول الله ﷺ: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ). مسند الإمام أحمد بن حنبل.

الحديث التاسع:

قال رسول الله ﷺ: (لَا تَقُومُ السّاعَةُ حَتّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلّا الْغَرْقَدَ فَإِنّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ) رواه مسلم.

الحديث العاشر:

عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: (تُقَاتِلُكُمُ اليَهُودُ فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يَقُولُ الحَجَرُ: يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي، فَاقْتُلْهُ). البخاري رقم 3593، ومسلم رقم 2921.

القسم الثاني: محطات بارزة في الطريق إلى القدس

القدس موطن القبائل العربية:

يخبرنا التاريخ العربي أن قبائل الحجاز —ولا سيما قريش— عرفت طريقين للتجارة، طريقًا إلى بلاد الشام، وآخر إلى بلاد اليمن السعيد.

كانت بلاد الشام خاضعة للاستعمار الروماني، وكانت العراق خاضعة للنفوذ الفارسي، وكانت اليمن ممالك وحواضر بنت حضارة عربية قحطانية قديمة في سبأ وحضرموت وغيرها.

وكانت مكة وما جاورها من قبائل عربية متناثرة، تتميز عن غيرها بوجود البيت الحرام الذي رفع قواعده النبي إبراهيم عليه السلام. وتتوسط قبائل العرب، وتعتمد على تجارة مستمرة مع الشام واليمن، التي سميت رحلة الشتاء والصيف، يقول تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ 1 إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ 2﴾[1].

فهذه الرحلة شمالًا وجنوبًا كانت عصب الحياة التجارية لقريش التي ضمت عددًا من القبائل الصغيرة، فتصاهرت حتى أصحبت قبيلة واحدة آمنة، تعيش في منأى عن الغزو، تحترمها جميع قبائل العرب، وتحترم موقعها وخدماتها للعرب الآتين لعبادة أصنامهم، ويطوفون حول البيت العتيق، ويتبادلون التجارة ويلقون الخطب والشعر، والرحلة إلى الشام ظلت مستمرة آمنة، تدر على أهل مكة وتجارها المال والقماش وغير ذلك.

وتذكر كتب السيرة أن أبا سفيان كان على رأس قافلة قد وصلت إلى مدينة غزة. وباعتباره كان رئيس القافلة وكبير تجار قريش وأحد زعمائها، فقد استدعي من قبل هرقل الذي كان قائمًا آنذاك في القدس؛ ليسأله عن النبي الجديد الذي ظهر في مكة، والتقى أبو

1 القرآن الكريم، سورة قريش: 1-2.

سفيان بهرقل، وسئل عن هذا النبي، وبعد أن تحدث أبو سفيان لهرقل عن مكانة النبي محمد ﷺ في قومه، قال قولته التي يرويها البخاري في صحيحه في الجزء الخامس في كتاب الوحي: (فإن كان ما تقول حقًا، فسيملك موضع قدمي هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج لم أظن أنه منكم)[1].

فالعلاقات التجارية بين قريش والشام وتحديدًا فلسطين كانت مستمرة وقوية، مما يوحي أن قريشًا ذاتها كانت تعرف كثيرًا عن فلسطين والقدس وأهلها، وكانت تعرف أن هناك رُومًا يحتلون أرضًا فيها سكان عرب يتحدثون العربية مثلهم مثل قبائل قريش، وتذكر كتب التاريخ ومصادرها عددًا كبيرًا من القبائل مما يلي المدينة إلى الشمال في وادي القرى، يقول المؤرخ أبو عبد الله السكوني: «وادي القرى والحجر والجناب منازل قضاعة، ثم جهينة وعذره وبليّ وهي بين الشام والمدينة التي يمر بها حاج الشام، وكانت قديمًا منازل ثمود».

ثمّ تأتي مدين وهي بين وادي القرى والشام، وقيل: مدين تجاه تبوك بين المدينة والشام، وكانت تسكنها قبائل جزام، وبعدها تأتي قبائل مُرة التي كانت تسكن فدك، ومن ثمّ تأتي دومة الجندل، وهي على سبع مراحل من دمشق، وعلى عشرة مراحل من المدينة، وهي حصن منيع ومعقل حصين، كان يسكنها بعض قبائل العرب، وعلى رأسهم أكيدر الذي جعل من نفسه ملكًا على قومه، ومن تلك البلدان الجناب وهي أرض واسعة تقع شمال خيبر، وتمتد إلى تيماء، وتعرف اليوم بالجهراء وهي منازل قضاعة، ومنها أيضًا ذات أطلاح وهي من أرض الشام.

ويقال إنها البلقاء وهي قريبة من مؤتة، وكانت مساكن قضاعة وكان على رأسها رجل يدعى سدوس، وتأتي منطقة مؤتة وهي من أرض البلقاء في الشام، وهي على مرحلتين من بيت المقدس، وهي موضع معروف عند مدينة الكرك، ومن بعد مؤتة تأتي ذات السلاسل، وهي أرض قبيلة بني عذرة وبني القين ولخم وجذام، وهي من مشارف الشام في منطقة تسمى بليّ.

1 صحيح البخاري، ج 5، كتاب بدء الوحي.

وإذا نظرنا إلى بقية القبائل التي سكنت الشام فيما يجاور القدس وجدنا في بُصرى ملكًا غسانيًا هو شرحبيل بن عمرو الغساني، إضافة إلى عدد كبير من القبائل التي كانت منتشرة في ما حول بُصرى، وحتى داخل فلسطين اليوم، ومن تلك القبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبليّ وقضاعة وتنوخ.

ويدل الوضع السياسي آنذاك، أن تحالفًا قويًا كان بين غالبية العرب وبين الروم في تلك البقاع الشامية، والأحداث التي تلت حتى معركة اليرموك تدل على أن الروم كانوا يعتمدون على قوة القبائل العربية في حربها ضدّ الإسلام والمسلمين، قبل أن يحولها الإسلام إلى قوة ضاربة، تدافع عنه، بل وتندفع إلى نشر الإسلام في العالم، ولو نظرنا إلى المسافة بين المدينة المنورة وبيت المقدس لوجدناها ليست بعيدة بالقياس إلى الفروق بين المدينة وغيرها من المناطق، وهي بشكل عام لا حدود فاصلة بينهما، حيث لا جبال عالية ولا أنهر كبيرة، وبشكل عام تشكل وحدة جغرافية لا تمييز فيها لشيء على حساب شيء آخر.

لماذا ركز النبي ﷺ تحركه نحو الشمال من المدينة؟

قلنا إن شمال المدينة ينطلق من وادي القرى ليصل إلى بُصرى من ناحية، وإلى جوار تبوك من ناحية أخرى؛ فالقادم من المدينة إلى فلسطين عليه أن يختار طريقين، طريقًا من المدينة فحوران، ثمّ وادي اليرموك ثمّ شمال فلسطين، وطريقًا آخر من المدينة باتجاه العقبة، ثمّ جنوب فلسطين وصولًا إلى مدينة غزة ومنها إلى مدينة القدس.

ويبدأ اهتمام النبي ﷺ بفلسطين وبيت المقدس تحديدًا منذ أن نزلت سورة الإسراء على قلبه، وذلك حسب أكثر المصادر في السنة التاسعة للبعثة.

فبعد أن اضطهدته قريش اتجه نحو الطائف في رحلة عذاب وصدّ، ولمّا لم يلق استجابة من أهل الطائف، عاد إلى مكة داعيًا ربه ومناجيًا وشاكيًا له ضعفه.

فجاء الأمر الإلهي بإسرائه من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وحادثة الإسراء وما جرى فيها من كرامات لرسول الله ﷺ، طبعت في كيانه مكانة تلك

الأرض المباركة، وصار تعلقه فيها يشبه تعلقه بالبيت الحرام، وقد أدرك عليه الصلاة والسلام أن هذين المكانين؛ أي المسجد الحرام والمسجد الأقصى، هما أحق بالدين الجديد الذي أراده الله سبحانه خاتمًا للرسالات، ولكن كيف يكون من حقّ الدين الجديد وأصحابه؟.

ما الخطوات الضرورية العملية حتى يلتقي المسجدان ويطهرا ويصبحا مسجدين لأمة الإسلام؟.

هنا يأتي الحديث المفصّل عن تحرك النبي ﷺ، ووجهة نظره تجاه التوجه نحو الشمال حيث الروم ومجموعة القبائل الموالية لهم.

بداية، لا بد أن نشير إلى أن رسول الله ﷺ، يدرك أن هناك يعشش الروم في أرض فلسطين وبلاد الشام، وهناك إلى الشرق يعشش الفرس في العراق وسواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج العربي، وهناك الحبشة واليمن، وهناك قوى صغيرة متفرقة هنا وهناك، على مساحات واسعة من البلاد.

فكان أول ما قام به النبي ﷺ أن بعث برسائل إلى هؤلاء الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، وكان من بين هؤلاء أمراء القبائل الغسانية الساكنة في بلاد الشام وكذلك ملك الروم.

وهذه الرسائل تدل على أنه ﷺ كان يعرف ما يحيط بالجزيرة من قوى حقّ المعرفة وخاصة الروم، وقد أوحى الله سبحانه لنبيه ﷺ بسورة من القرآن اسمها سورة الروم، وقد قال تعالى فيها: ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ (٣) فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (٤) بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾[1].

فتخصيص سورة في القرآن الكريم باسم سورة الروم، يوحي لنا بما لا يدع مجالًا للشك بأن الروم هم القوة العظمى في ذلك العالم، بمعنى أنهم فرعون العصر، ومع ذلك فإن النبي

1 القرآن الكريم، سورة الروم: 1-5.

ﷺ وبوحي من الله يعرف هؤلاء القوم ويعرف تاريخهم، كما يعرف بوحي من الله مصيرهم وما ستؤول إليه أمورهم.

والملاحظ في الآيات الخمس السابقة أن الله سبحانه وصف الصراع بين الروم وأعدائهم بأنه صراع الغلبة، فقال: (غُلِبَتِ)، و(سَيَغْلِبُونَ)، لكن الله سبحانه جاء بكلمة نصر؛ لتدل على أن أمّة الإسلام ستفرح بنصر الروم القادم على الفرس، وما النصر إلا من عند الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال: لماذا لم يتناول القرآن الكريم الفرس كما تناول الروم باعتبارهم القوة الموازية للروم في ذلك العصر؟

الواقع أن ذلك يرتبط بمكانة بيت المقدس ومكانة الأرض المباركة فلسطين، بمعنى أن تحرير بيت المقدس من الأوليات في التوجه النبوي والتوجه الإسلامي؛ ولذلك فإن الصدام مع الروم لا بدّ قادم إن هم لم يذعنوا لدين الحق.

إذًا، فالغاية من التوجه نحو الشام وبيت المقدس تحديدًا تصبح مزدوجة، أيّ هي في سبيل نشر الدعوة الإسلامية وفي سبيل تخليص بيت المقدس لتحقيق كلمة الله في سورة الإسراء حين قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝﴾[1].

الاحتكاك العسكري الأول بين المسلمين والروم في أطراف الشام:

بدأ الاحتكاك بين دولة الإسلام في المدينة المنورة وبين المناطق الواقعة إلى الشمال منها ببعث سرايا، كانت غايتها الدعوة إلى الله أولًا، وتبليغ الروم رسالة واضحة بأن الدولة الإسلامية الفتية لها الحق وعليها واجب تحرير الأرض المباركة وتطهير المسجد الأقصى

1 الإسراء: 5.

من طغيان وفساد الرومان، فرعون ذلك العصر، لها حقوق في أراضي العرب قاطبة ولا بدّ من استرجاعها وإخراج المستعمر الروماني منها.

لما فرغ الرسول ﷺ من خيبر في السنة السابعة للهجرة امتدّ إلى وادي القرى، وفتحها عنوة، ثمّ صالح أهلها على الجزية، وظلّت قبائل كثيرة في هذه المنطقة تعيث فسادًا، وتهدد المسلمين من التجار والمسافرين.

بعث رسول الله ﷺ بسرية بقيادة زيد بن حارثة، فلقي بني فزارة ودار بينهما قتال، وأصيب بها عددٌ من الصحابة، وانفلت زيد من بين القتلى، فلما قدم زيد بن حارثة نذر ألا يمس رأسه غسل جنابة حتى يغزو فزارة، لكن هنالك قولًا ثانيًا ذكره الواقدي وابن سعد في الطبقات، ذكرا أن زيدًا خرج في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ، فلما كان دون وادي القرى لقيه عدد من فزارة من بني بدر، فضربوه وضربوا أصحابه، وأخذوا ما كان معهم، ثمّ استبلّ (تعافى)، وقدم على رسول الله ﷺ، فأخبره فبعثه إليهم.

وتأتي سرية حسمي في المقام الثاني من توجه رسول الله ﷺ نحو الشمال، فهذه السرية جاءت على خلفية الاعتداء السافر الذي تعرض له سفير النبي ﷺ إلى هرقل، وحامل كتابه إليه دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه بينما كان مقبلًا من عند هرقل.

يقول الطبراني: حتى إذا كان بوادي من أوديتهم يقال له شنار أغار على دحية بن خليفة الهنيد بن عوض، من قبيلة جذام وكان معه ابنه عوص بن الهنيد، وأخذا من الصحابي ما معه، فبعث رسول الله ﷺ بسرية بقيادة زيد بن حارثة، وكانت السرية في السنة السابعة للهجرة، وكان مع زيد خمسمئة من المسلمين، ولما وصل زيد وسريته إلى أماكن تواجد جذام، أغار عليهم وقتل الهنيد وابنه لما فعلوه مع رسول الله ﷺ، وأخذ المسلمون ألف بعير من النعم والشياه. ثم وفد بعض جذام إلى المدينة كي يستردوا النساء اللواتي أسرهن جيش المسلمين، وقد استجاب لهم رسول الله ﷺ.

وقد كان لهذه السرية ونتائجها أثر كبير على نفسية أبناء القبائل الأخرى التي تسكن أطراف الشام، وقد وصلت أخبارها إلى الملك الغساني الشرحبيل وغيره من الأمراء والملوك الذين كانوا يتحالفون مع الروم.

وجاءت بعدها غزوة مدين، بعث رسول الله ﷺ كتابًا إلى ضميرة، وهي أم معروفة في قبيلتها التي سباها جيش المسلمين، أعتقها وأعتق بني قومها، وقد أحب والدها أن يبقى مع رسول الله ﷺ بعد أن حسن إسلامه.

ثمّ جاءت سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بمنطقة فدك وسرية بشير بن سعد إلى بني مُرة أيضًا بفدك، وكذلك سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى فدك، فهذه ثلاث سرايا يتوالى بعثُها إلى منطقة واحدة.

وكان سبب السرية الأولى بقيادة علي بن أبي طالب المعلومات التي بلغت الرسول ﷺ عن بني سعد بن بكر، بأن لهم تحركات وحشودًا استعدادًا لإمداد يهود خيبر، وكان جهد النبيﷺ منصبًا آنذاك على تحطيم الحلف الخيبري الذي كان بين يهودها والقبائل المحيطة بخيبر، حيث كان لهم دورٌ بارز في غزوة الأحزاب.

وفي التفاصيل، أن النبي ﷺ بينما هو في طريقه إلى خيبر، وصلت إليه معلومات مفادها أن هناك تحركات تحشدية معادية للمسلمين، يقوم بها رجل من بني سعد بن بكر يدعى وبر بن عليم، في جمع من قومه بني سعد بالقرب من فدك؛ مناصرةً لليهود في خيبر ضدّ المسلمين، وأنهم بصدد الاتفاق معهم على إمدادهم بقوة منهم مقابل جزء من ثمر خيبر يجعل لهم.

وقد باغتهم رسول الله ﷺ قبل استكمال استعدادهم، فسارع في تجهيز سرية قتال بقيادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد أغار على نعمهم فسباها، ثمّ هاجم معسكرهم فهربوا، ولكنه مكث ثلاثة أيام هناك حتى دب الرعب في قلوب بقية القبائل، وقد نجح علي بن أبي طالب رضي الله عنه نجاحًا كبيرًا في إدخال الرعب في المتحالفين مع الروم، مما مهد الطريق أكثر فأكثر للتمدد نحو الشمال والبدء بالصدام الحقيقي مع الروم.

فهذه السرية وغيرها من السرايا التي بعثها رسول الله ﷺ إلى الشمال، تؤكد أنه عليه الصلاة والسلام كانت له شبكة شبه منظمة من العيون مبثوثة بين أعدائه، وقد مكنه ذلك من القضاء على أعدائه قبل أن يتجمعوا، ويهددوا المسلمين في المدينة، ومن أهم سمات هذا التحرك أن السرية غادرت ليلًا، وكانت تحيطها السرية التامة مما مكنها من الانتصار السريع وإشاعة الرعب في المناطق المجاورة، ولحق هذه السرية عدة سرايا بقيادة كل من غالب الليثي وأسامة بن زيد والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم، وكلها كانت تتجه إلى فدك.

وبدأت الغزوات الكبرى تأخذ مجراها بدءًا من سنة ست للهجرة، وبدأها المسلمون بغزوة دومة الجندل، ودومة الجندل تعني الحصن أو القلعة، وكان فيها بنو كنانة من كلب، وكان الحصن تحيط به عدة قرى، وكن يتحصن فيه أكيدر الملك، وتعدّ دومة الجندل أكبر مدينة في منطقتها، وهي التي تفتح الطريق إلى مدن جنوب سورية.

ولّى رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف أميرًا على السرية، وقد خطب عليه الصلاة والسلام في جيش ابن عوف قائلًا: (اغْزُوا جَمِيعًا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، لا تَغُلُّوا، وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تُمَثِّلُوا وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، فَهَذَا عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَسُنَّتُهُ فِيكُمْ)، رواه الحاكم. فأخذ عبد الرحمن بن عوف اللواء وكان معه سبعمئة رجل، وأمره بالمسير إلى دومة الجندل؛ ليدعو أهلها إلى الإسلام. فلما حل بها دعاهم إلى الإسلام فمكث فيها ثلاثة أيام يدعوهم، وقد أبوا ولكنهم بعد الأيام الثلاثة أخذوا يدخلون دين الله، فكان أول من أسلم منهم الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانيًا وكان على رأسهم، وأسلم أناس كثيرون من قومه، وعاد عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة وبشر النبي ﷺ بأن الفتح العظيم كان بإسلام زعيم دومة الجندل وأهلها.

ويتبين من هذا أن غاية الغزوات والسرايا هي نشر دين الله وتحرير الناس جميعًا، وإتاحة جميع الظروف أمامهم؛ ليختاروا الدين المناسب لهم ومصيرهم، ومن ثمّ لإزالة الطغيان في العالم، وليس القتال أو سفك الدماء وهذا هو طريق الإسلام منذ بدايته.

ثمّ بعث عليه الصلاة والسلام بسرية يقودها الصحابي بشير بن سعد رضي الله عنه إلى منطقة الجناب، وسبب السرية أن رسول الله ﷺ علم من عيونه أن زعيمًا قويًا ومؤثرًا من زعماء قبيلة غطفان هو عُيينه بن حصن الفزاري كان يحشد الناس في منطقة الجناب قرب خيبر ؛ استعدادًا للزحف على المدينة أو الإغارة على أطراف المدينة.

وقد بعث النبي ﷺ السرية بسرعة قبل أن يبدأ زحف غطفان على مدينة المسلمين، وبعث بشير بن سعد على رأس ثلاثمئة رجل وأمرهم أن يسيروا في الليل ويكمنوا في النهار، حتى أتى إلى منطقة الجناب، فأغار المسلمون عليها، وأخذوا غنائمها، ثمّ التقوا بعُيينه، فهرب من وجههم لا يلوي على شيء، وأسر المسلمون بعضًا من رجاله، وقيل إن عُيينه كان قد شارك في غزوة الأحزاب وساعد يهود قريظة وقينقاع في النزول في خيبر .

ثمّ تأتي سرية ذات أطلاح، وهي منطقة وراء وادي القرى من أعمال الشام، وهذه السرية دخلت العمق الشامي الذي تحالفت قبائله مع الروم من قضاعة وغيرهم، وتقول المصادر إن المسلمين كانوا قلة قليلة وكانت غايتهم أن يدعوا أهل قضاعة إلى الإسلام، ولم يكن في نيتهم القتال، وكان على رأسهم كعب بن عمير الغفاري. وتقول المصادر: إن قضاعة رفضوا الدخول في الإسلام، وتحرشوا بالمسلمين حتى استفزوهم، فنشب قتال عنيف مما أدى إلى استشهاد السرية كلها إلا رجلًا جرح وتحامل على جرحه، وذهب إلى المدينة فأخبر النبي ﷺ، فشق عليه ذلك وهمَّ ببعث الجيش المسلم إليهم، لكنه أخبر أنهم غيروا مكانهم، ورحلوا وكان عدد الذين استشهدوا في هذه السرية أربعة عشر صحابيًا.

إن جميع السرايا التي بعثها النبي ﷺ كانت تمهيدًا للغزوة الكبرى مؤتة، التي سيأتي ذكرها والتعليق عليها وتحليلها كونها كانت الحركة الصدامية الأولى مع قوى عسكرية رومانية كبرى، وتأتي في سياق الطريق الثابت للصدام مع الروم.

أولى سرايا المسلمين باتجاه القدس:

اعتمد رسول الله ﷺ خطة تتابع السرايا المسلمة باتجاه شمال المدينة المنورة وصولًا إلى تخوم الشام، على اعتبار أن الخطر الأكبر على الدولة الإسلامية يأتي من تلك المنطقة. والناظر إلى حركة الرسول ﷺ، يرى أنه ترك التوجه إلى جنوب المدينة باعتبار أن الفضاء الشمالي مفتوح، بينما تقف قريش وحلفاؤها في مكة وما جاورها عقبة في وجه التوجه الدعوي للمسلمين في الجنوب.

لكن المسألة تأخذ أبعادًا أخرى حينما ندرك أن توجه نظر النبي ﷺ إلى الشمال كان يعني كثيرًا من المعاني والأهداف والغايات، أول هذه المعاني أن القرآن الكريم ركز في آياته الأولى من سورة الإسراء على أهمية فلسطين والمسجد الأقصى، ثمّ ركز على إيضاح دور الروم آنذاك، حيث مثلوا القوة الكبرى في العالم، من حيث فرعونيتها وطغيانها واستعبادها لآلاف المناطق والبلاد والعباد، وبالمحصلة فإن فلسطين - بوصفها أرضًا مباركة - والأقصى - باعتباره يقارب البيت الحرام من حيث رمزيته وأهميته القصوى - كانا يقعان تحت نير هذا الاستعباد الرومي الطغياني، وكان من المحتم التصادم بين الإسلام - بوصفه دعوة عالمية تريد نشر مبادئها - وبين الآخرين من الروم والقبائل العربية الواسعة الانتشار في الشام حول فلسطين والمسجد الأقصى.

ومع تطور الدولة في المدينة، وانتشار الإسلام بشكل واسع بين القبائل، تطور التحرك الإسلامي كمًا ونوعًا، فبعد عدد من السرايا التي بعثها رسول الله ﷺ، أحدث نقلة نوعية في ﷺ لتحرك، فكانت غزوة مُؤْتة، التي فصلت بين وقتين مهمين ومرحلتين مختلفتين، فلماذا كانت غزوة فاصلة بين مرحلتين في تاريخ التحرك الإسلامي باتجاه بلاد الشام؟

أولًا: تجاوزت بعض قبائل العرب حدودها الأخلاقية والأعراف "الدبلوماسيّة" إن صح التعبير، وهذا التجاوز تجسد في قتل الأمير الغساني الشرحبيل بن الحارث لمبعوث رسول الله ﷺ، عندما بعث برسالة إليه يدعوه فيها إلى الإسلام، وكذلك مضايقة

قبائل قضاعة وعذرة، وغيرهما من القبائل للتجار المسلمين، بل والإغارة عليهم، وسلبهم أموالهم وتجارتهم، ولعل أهم مظاهر هذا التجاوز تحالف بعض القبائل مع يهود خيبر وفدك وتيماء للإغارة على المدينة، بنية قتل الرسول ﷺ، والقضاء على دولة المدينة.

ثانيًا: كانت السرايا التي بعثها رسول الله ﷺ قليلة العدد، وكانت غاياتها محدودة، ولم تكن بقصد المواجهة المسلحة، إنما كانت بقصد الدعوة والضغط النفسي على القبائل، لإعلامها بوجود القوة الإسلامية الناشئة، بينما كانت غزوة مُؤْتة قد تميزت بملامح عسكرية واضحة، من حيث عدد المجاهدين المشاركين فيها، ومن حيث تعيين قادة ثلاثة، لاحتمال استشهاد الأول والثاني منهم في المعركة، وهذا الأمر بالذات عائد إلى تقدير رسول الله ﷺ لأهمية المعركة وخطورتها، باعتبار أنها المواجهة الأولى مع الروم، واحتمال استشهاد عدد كبير من المسلمين فيها.

ثالثًا: لأول مرة تصل قوات المسلمين إلى مناطق لم تكن قد وصلتها سابقًا، وهذا بحد ذاته يُعدّ تحديًا واضحًا للروم وحلفائهم، على الرغم من كثرة أعداد جنود الروم وهؤلاء الحلفاء.

قُدر عدد المسلمين بثلاثة آلاف رجل، واختلفت الآراء التاريخية في عدد الروم والقبائل، فبعضهم قال: إن قواتهم بلغت مئتي ألف أو مئة ألف أو أربعين ألفًا، حسب بعض مصادر كتب التاريخ.

رابعًا: جاءت غزوة مُؤتة لتؤكد للروم وحلفائهم من جهة والمسلمين من جهة أخرى، أن فلسطين، بما فيها المسجد الأقصى، تُعدّ الهدف الأول في التحرك الإسلامي، وقد استشعر ذلك ملك الروم نفسه "هرقل"، عندما سأل أبا سفيان، وهو في تجارته في فلسطين، عن ذلك الرسول الذي ظهر في مكة.

خامسًا: لأول مرة في تاريخ العرب يتحرك أبناء الجزيرة خارجها يحملون دعوة يريدون نشرها؛ تنفيذًا لأوامر إلهيّة، بينما كان تحرك الفرس والروم على أطراف هذه الجزيرة يحجم دور العرب، ويحصرهم داخل الصحراء لا حول لهم ولا قوة، وهذا التحرك قلب المعادلة تمامًا على المستوى النفسي للروم، وعلى المستوى السياسي والاجتماعي والعسكري، والأهم قلب المعادلة على المستوى الديني، إذ إن إعادة العرب إلى دورهم الرسالي الصحيح، الذي رسمه الله سبحانه منذ النبي إبراهيم عليه السلام، هو المسار الصحيح الذي يصحح الانحراف الذي طرأ على هذه الأمة، بل يصحح ما طرأ من تحريف واضح في اليهودية والنصرانية خاصة، بعد أن أدخل الرومان كثيرًا من العادات الوثنية على العقيدة النصرانية، وبعد أن تخلى اليهود عن أُسس عقيدة أنبياء بني إسرائيل، واعتمدوا أفكار أحبارهم على حساب تعاليم موسى عليه السلام.

وتُعدُّ معركة مُؤْتة نقلة نوعية أيضًا من حيث نتائجها، لقد أخذ بعض المؤرخين بظاهر هذه النتائج من زاوية واحدة، واعتبروا أن استشهاد القادة الثلاثة - زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم - خسارة للمعركة كلها، بيد أن إحصاءات الواقع تشير إلى أن جميع شهداء المسلمين بلغوا اثني عشر شهيدًا فقط، ومن بينهم القادة الثلاثة، بينما تشير جميع المصادر التاريخية إلى أن عدد القتلى من الروم وحلفائهم بلغ المئتين.

ومن الآثار الهامة لهذه المعركة أن بعض القبائل العربية التي جاءت لتقاتل مع الروم، انسحبت قبيل المعركة؛ إدراكًا منها أن من الخطأ قتال المسلمين على اعتبارهم عربًا مثلهم، إضافة لما سمعوه عن قوة عقيدة المسلمين، وحبهم للاستشهاد في سبيل الله، وهذا ما أدى إلى تزعزع العقد والتحالف بين الروم وبين بعض القبائل العربية.

وقد أظهرت المعركة إمكانات عسكرية إبداعية لدى القائد المسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه، وخاصة أنه استخدم أساليب جديدة لمواجهة ظروف المعركة؛ فاستبدل أماكن التقسيمات العسكرية؛ ليوهم العدو أن مددًا كبيرًا جاء للمسلمين، وبلغ ذكاؤه العسكري مبلغًا كبيرًا

عندما أرسل بضع عشرات من المقاتلين المسلمين إلى الخلف منتشرين انتشارًا عرضيًا، وراحوا يثيرون الغبار حتى امتلأ الفضاء بالعجاج، وهذا ما أوهم الروم بأن مددًا عظيمًا جاء للمسلمين. لكن الأهم من ذلك كله إدراك خالد أن خير وسيلة للدفاع الهجوم؛ ففي ذروة النهار أغار خالد مع مجموعة من أشداء الفرسان المسلمين على قلب الجيش الرومي، وفتكوا بالعديد منهم، وعادوا إلى مواقعهم، وهذا ما أوقع الرعب الشديد في قلب الروم وحلفائهم، فآثروا التراجع إلى الحصون والمدن والقرى القريبة من ساحة المعركة.

وهذا ما سيكون له أكبر الأثر في انتصار المسلمين على الروم في معارك الشام وفلسطين تحديدًا، كمعركة كفر دارم، ومعركة فحل، وقيسارية واليرموك؛ فقد برزت خبرة خالد بن الوليد، ومن حضر معه معركة مُؤْتة بشكل جلي، حيث كانوا يعرفون أساليب الروم القتالية، وخبروا أنفسهم وتكتيكاتهم العسكرية؛ فكانت مُؤْتة الدرس الكبير الأول، الذي علم المسلمين خبرات قتالية متميزة في مواجهاتهم مع الروم.

وعلى الرغم من انسحاب المسلمين انسحابًا منظمًا إلا أنهم، وفي طريق العودة إلى المدينة، أخضعوا عددًا من القبائل المتمردة التي كانت متحالفة مع الروم، مثل قبيلة قضاعة ولخم وجذام.

ويشير الدارسون العسكريون إلى أن معركة مُؤْتة كانت بمثابة العدّ التنازلي لسقوط الاحتلال الروماني لأرض فلسطين، على الرغم من أن هناك فاصلًا زمنيًا بينها وبين معارك الفتح الإسلامي، زمن الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، وكذلك في زمن الخليفة عمر رضي الله عنه.

وعلى المدى العسكري الاستراتيجي، أدرك الروم بعد المعركة، أن المواجهة مع المسلمين سوف تتسع، وخاصة في بلاد الشام وفلسطين تحديدًا، وما يشير إلى ذلك تركيز ملك الروم هرقل على تقوية جيشه في المنطقة ومكوثه فيها أكثر أيامه.

وعلى مستوى القبائل العربية، فقد كان لمعركة مُؤْتة أثرها الكبير عليها، فقد أسلم منهم خلق كبير، ومن جملة من أسلموا أمير معان وبعض زعماء قبيلته، وكذلك بعض أفخاذ

قبيلة قضاعة، وقبيلة عذْرة وغيرها، أما من أرادوا العناد وعدم الرضوخ للحق، فقد شددوا على تقوية حصونهم في الكرك وبُصرى والقدس؛ ظنًا منهم أن تلك الحصون ستدفع عنهم الفاتحين المسلمين، وفي جميع الأحوال فإن معركة مُؤْتة قلبت موقف الامبراطورية الرومانية والأعراب إلى موقف الدفاع وليس الهجوم، على الرغم من قوة هذه الامبراطورية وفرعونيتها، وعلى الرغم من قلة عدد المسلمين.

عاد جيش المسلمين من مُؤْتة وكان على رأسه خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان الجيش قد فقد اثني عشر مسلمًا استشهدوا في المعركة، ومن بينهم القادة الثلاثة زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم.

كانت معركة مُؤْتة نصرًا للمسلمين، على الرغم مما بدا من عدم تحقق الأهداف المادية، من إخضاع المنطقة للمسلمين، أو كسب غنائم كثيرة، أو ما شابه ذلك.

وقد كان لخطة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أثرها الكبير البالغ على جيوش الروم وحلفائهم من العرب المتنصّرة، حيث انكفأوا وتراجعوا، يحسبون ألف حساب إذا ما تلاقوا مع الجيش الإسلامي.

بعد المعركة بأسابيع قرر بعض زعماء القبائل العربية المتنصّرة أن يجمعوا ويحشدوا الناس ضدّ المسلمين، وقد وصلت أخبار تحركات عدوانية نشيطة لقبائل بُليّ وقضاعة إلى النبي ﷺ، واستعدادهم للهجوم على أطراف المناطق الإسلامية من جهة الشمال.

والواقع أن التحرك الإسلامي باتجاه بلاد الشام ظلّ على ما هو عليه كونه استراتيجية دينية وعسكرية ترتبط بالأرض المباركة؛ فلسطين والمسجد الأقصى.

تحرك رسول الله ﷺ بسرعة لضرب تلك القبائل قبل استكمالهم لاستعداداتهم القتالية.

لقد كانت القبائل المتنصّرة والحليفة لبيزنطة من القوى التي تقف في وجه الدعوة أولًا، والتي تحول دون تحرير الأقصى وفلسطين ثانيًا، فكان لا بد من ردعها وإخضاعها، وهذا يدل

على أن المسلمين كانوا مهيئين لمواجهة الروم، حيث كانوا في وضع استعدادي متناسق ومتدرج لمنازلة الدولة البيزنطية، لوضع حدّ لسلطانهم، والقضاء على قوتهم العسكرية والسياسية المناهضة لنشر الإسلام في المنطقة، وعدم استكمال ربط الأقصى بالمسجد الحرام على المستوى الديني.

اختار رسول الله ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه قائدًا على سرية، اتجهت نحو الشمال في الشتاء، وكان البرد قارسًا، ومما يذكر أن جنود السرية طلبوا من عمرو أن يشعلوا النار، لكنه رفض؛ خوفًا من افتضاح وجهة الغزو.

وتذكر المصادر أن عمرو بن العاص رضي الله عنه قاد ثلاثمئة من المسلمين ومعهم ثلاثون فارسًا، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يستعين بمن أسلم من قبائل بُليّ وعذرة وبلقين، فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعًا كبيرًا، فبعث رافع بن مكيث الجهني رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه في مئتين، وعقد له لواء، وبعث معه سراة المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وصل المسلمون إلى ديار قبائل بُليّ، ولقوا جنودهم فهزموهم، وسار الجيش حتى وطئ بلاد بُليّ ودخلوها، حتى أتى أقصى بلادهم وبلاد عذرة وبلقين.

وقد طلب بعض المسلمين أن يتوغلوا في تلك البلاد، فنهاهم عمرو رضي الله عنه عن ذلك، مخافة أن يكون لهم كمين وراء الجبل. وعاد الجيش الإسلامي منتصرًا بعد أن نفذ مهمته على أحسن وجه.

ولم تمض فترة زمنية حتى بعث رسول الله ﷺ سرية بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى دومة الجندل، وكان عليها أمير قوي يسمى الأكيدر، وأجمعت الروايات على أن تاريخ بعث السرية كان بعد أن انتهى رسول الله ﷺ من غزوة تبوك.

وفي ذلك التاريخ بعث أمير أذرعات، وكذلك أمير جربا وصاحب أيلة، إلى رسول الله ﷺ يطلبون الصلح، فتم الصلح ودفعوا الجزية.

كانت القوة المسلمة تقدر بأربعمئة وعشرين فارسًا، يقودهم خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي رواية أن الرسول ﷺ أمّر أبا بكر على المهاجرين، وأمّر خالدًا على الأعراب معه، لكن المصادر ترى أن جميع من في السرية كانوا تحت قيادة رجل واحد هو خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والملفت للنظر في هذه الغزوة أن جميع رجالها من الفرسان ليس بينهم مشاة، وعلى رأسهم فارس مشهود له، هو خالد.

وترى المصادر أن دومة الجندل كانت تشكل دويلة مستقلة استقلالًا ذاتيًا في وسط قبائل كلب، وكان ملكها أو أميرها الأكيدر بن عبد الملك الكندي، وكان نصرانيًا يدين بالولاء للدولة البيزنطية.

وعلى الرغم من أن دومة الجندل كانت تتمتع بحصن قوي، إلا أن المسلمين كمنوا قريبًا من حصن الأكيدر، وقد خرج مع نفر من حاشيته يصطاد البقر الوحشي، فانقض المسلمون عليه وعلى جماعته وأسروهم، وجاء خالد بن الوليد بالأكيدر إلى الحصن، وطلب الأخير من أهله أن يفتحوا الحصن، ففتح الحصن، ثمّ قدم خالد بالأكيدر إلى المدينة عند رسول الله ﷺ، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، وخلّى سبيله ورجع إلى حصنه.

جاء في بعض الروايات أن الأكيدر أسلم، وأهدى بعض الهدايا لرسول الله ﷺ، وذكر الواقدي وابن سلام أن رسول الله ﷺ بعث إلى الأكيدر بكتاب جاء فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها، وأن له الضاحية من الضحل والبور والمعامي وأغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحصين، ولكم الضامن من النخل والحصين من المعمور بعد الخمس، لا تعدل سارحتكم، ولا تعد فاردكم، ولا يحظر عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر البتاب، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة لحقها، عليكم بذلك العهد والميثاق ولكم بذلك الصدق والوفاء شهد الله ومن حضر من المسلمين".

ولم يمض وقت حتى أمر رسول الله ﷺ بتجهيز جيش يقوده أسامة بن زيد، وكان شابًا يافعًا، وقد اشتد برسول الله ﷺ المرض، وثقل عليه، قال ابن حجر: (كان تجهيز جيش أسامة يوم السبت قبل موت النبي ﷺ بيومين، وكان ابتداء ذلك قبل مرض النبي ﷺ، فندب الناس لغزو الروم في آخر صفر... وقد بدأ برسول الله ﷺ وجعه في اليوم الثالث، فعقد لأسامة لواءً إلى أن قال: "أنفذوا جيش أسامة"، فجهزه أبو بكر بعد أن استخلف، وقال ابن سعد: لما كان يوم الإثنين لأربع ليال بقين من صفر، سنة إحدى عشرة من مهاجر رسول الله ﷺ، أمر بالتهيؤ لغزو الروم، ودعا أسامة، فقال: سر إلى موضع مقتل أبيك (مؤتة)، فبينما هو يريد الركوب إذ برسول أمّه، يبلغه أن النبي ﷺ يموت، وأخر الزحف إلى أن انتهى المسلمون من دفن النبي عليه الصلاة والسلام. ثمّ سار أسامة في آخر شهر ربيع الأول حتى بلغ أرض الشام، وكانت هذه السرية آخر سرية جهزها الرسول ﷺ، وأول سرية جهزها أبو بكر رضي الله عنه بعد أن استخلف، وقد أمر أسامة بالإغارة على مؤتة وعلى أطراف فلسطين).

وقد اختلفت الروايات حول عدد أفراد الغزوة، فقال الواقدي: إنهم كانوا ثلاثة آلاف. أما ابن كثير فقال: كانوا سبعمئة.

لقد كان إصرار النبي ﷺ على إنفاذ جيش أسامة، يدل على الاستراتيجية القصوى التي أسسها النبي ﷺ، خاصة في التوجه العسكري المستمر باتجاه الشام وفلسطين، وقد ذكرت الروايات أن الروم اندهشوا وتعجبوا من فعل المسلمين وقوة تماسكهم، وقد دب الرعب في قلوبهم، وكان ذلك تمهيدًا لتحرير الأقصى من الغرباء، واسترداد بيت المقدس إلى دائرة التوحيد والإسلام.

الحروب الإسلامية الرومانية الكبرى من أجل فلسطين:

ظلّ رسول الله ﷺ يبعث السرايا باتجاه الشام؛ لتأديب الأعراب الذين تحالفوا سابقًا مع الروم ضدّ الدولة الإسلامية، إلى أن جاءت غزوة تبوك، التي حشد فيها رسول الله ﷺ أكبر جيش مسلم بقيادته، ولم يشتبك مع جيوش الروم؛ لأنها آثرت عدم الاصطدام مع جيش المسلمين، وعاد النبي ﷺ إلى المدينة، ثمّ ما لبث أن جهز جيش أسامة بن زيد باتجاه الشام، ولكنه انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل أن يتحرك الجيش.

وبعد تسلم الخلافة من قبل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أصرّ على إنفاذ بعثة أسامة بن زيد وجيشه باتجاه الشام، على الرغم من تمرد المرتدين في جميع أرجاء الجزيرة العربية، ومحاصرتهم للمدينة، ووجهات نظر بعض قادة المسلمين بعدم إنفاذها في ذلك الوقت، وإنما في وقت آخر.

في الوقت نفسه بعث الخليفة أبو بكر الجيوش والسرايا لتأديب المرتدين، ولم يمض وقت طويل حتى عادت الجزيرة العربية كلها إلى حظيرة الإسلام، وبات من الواضح أن سياسة الخليفة العسكرية اقتضت تنفيذ فرض الجهاد؛ لإعلاء كلمة الله، ونشر الدعوة بعد أن استنفذ المسلمون الفرص لدعوة الروم والفرس وبعض القبائل العربية إلى الإسلام.

وحينما ننظر إلى الواقع الاجتماعي والسياسي لجزيرة العرب آنذاك، ندرك أن عشرات الألوف من أبناء الأمة أصبحوا تحت قيادة سياسية واحدة، توجههم وتنظم حياتهم، وترسخ في نفوسهم معاني الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل نشر العدل والحرية بين الشعوب.

كان الروم يسيطرون على شرق الأردن وفلسطين والشام بالكامل، فأراد المسلمون إزاحتهم عن هذه المناطق العربية، باعتبارهم مستعمرين محتلين، ويمثلون السيطرة الغربية على أراض عربية، ولم يفكروا في ذلك إلا بعد أن حاولوا، ومنذ عهد رسول الله ﷺ، أن يبلغوا الدعوة إلى الروم، وقد جاءت رسالة النبي ﷺ إلى هرقل، كبير الروم في هذا السياق، لكن الروم رفضوا قبول الإسلام، ورفضوا الرحيل عن الأرض والجزية، فما كان من المسلمين إلا أن تصادموا معهم؛ لأنهم وقفوا حجر عثرة أمام نشر الإسلام.

لقد كان تحرك المسلمين باتجاه الشام استكمالاً لمسيرة الاستراتيجية الدينيّة والعسكريّة التي بدأها النبي ﷺ، خاصة تلك التي وجهت نحو الشام وفلسطين بسبب علاقتها الجغرافية والدينيّة بالقرآن الكريم.

كان الخليفة يدرك أن الروم قوة ضاربة لا يستهان بها، فأخذ يرسل إلى الأمراء المسلمين وقبائلهم المنتشرة في أنحاء الجزيرة العربية، وكان أن استنفر أول من استنفر عمرو بن العاص الذي كان قد ولاه على صدقات قبيلة قضاعة، ومعه الوليد بن عقبة، وقد كتب الخليفة لعمرو كتابًا جاء فيه:

(إني كنت قد رددتك على العمل الذي ولاكه رسول الله ﷺ وسماه لك أخرى، وقد أحببت - أبا عبد الله- أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك). فكتب إليه عمرو بن العاص: (إني سهم من سهام الإسلام، وأنت عبد الله الرامي بها والجامع لها، فانظر أشدها وأخطرها فارم بي فيها).

وكتب الخليفة إلى الوليد بن عقبة بمثل ذلك، واستدعى خالد بن سعيد بن العاص من اليمن الذي عقد له أول لواء، وعقد لواء ليزيد بن أبي سفيان، ومعه سهيل بن عمر نفر كبير من أهل مكة، وعقد لأبي عبيدة بن الجراح، وتوجه يزيد بن أبي سفيان إلى تبوك، وعمرو بن العاص في فلسطين، ويقال إن عمرو بن العاص سار حتى وصل العرمات من أرض الشام، ونزل يزيد في البلقاء، ونزل شرحبيل بن حسنة بالأردن ثمّ ببُصرى، ونزل أبو عبيدة بالجابية، وراح الخليفة يمدهم بالجيوش والأمراء والقادة.

تجمع مصادر التاريخ أن أول حرب مع الروم وقعت في مكان من أرض فلسطين يقال له العربة، وكان الروم قد اجتمعوا في هذا المكان، فقاتلهم المسلمون بقيادة أبي أمامة الصحابي، فانتصر عليهم.

وعلى مشارف القدس التقى خالد بن سعيد بالروم، وعلى رأسهم أمير يدعى ماهان، فكسر الروم، وهرب ماهان إلى دمشق، وأمر الخليفة أبو بكر خالد بن سعيد بالتقدم، وقد أمده بعكرمة بن أبي جهل والوليد بن عتبة.

أثارت تحركات الجيوش الإسلامية الروم وملكهم هرقل، الذي أدرك منذ البداية أن الروم سيخسرون أمام هذه الجيوش المسلمة.

وتنقل كتب التاريخ أن هرقل قال لأمراء وزعماء الروم: (ويحكم، إن هؤلاء أهل دين جديد، وإنهم لا قبل لأحد بهم فأطيعوني، وصالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج الشام، ويبقى لكم جبال الروم، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام وضيقوا عليكم جبال الروم)، وقد أخذتهم العزة بالإثم، فرفضوا وفرضوا على هرقل أن يحارب المسلمين، ويبعث بأقوى الجيوش لأجل ذلك.

والواقع أن الروم لم يعيروا أي اهتمام للدفاع عن بيت المقدس وأرض فلسطين، باعتبارها -كما يزعمون- حقًا للنصرانية، كونها أرض ميلاد المسيح عليه السلام، وأرض ميلاد العقيدة النصرانية، وما كان همهم سوى الدفاع عن مصالحهم المادية والمالية والسيطرة الاستعمارية على المنطقة، وفي المقابل كانت فلسطين، وخاصة بيت المقدس، لا تفارق عقول المسلمين وقلوبهم؛ كونها ترتبط بالإسلام والقرآن؛ فهي مسرى رسول الله ﷺ والقبلة الأولى، وفي العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى أسرار ربانية أشار إليها القرآن الكريم في سورة الإسراء وغيرها.

وحشدت الروم جيوشها وكذلك المسلمون، وأصبح الصدام الحاسم حتميًا في معركة فاصلة، تذكر مصادر التاريخ أن عدد المسلمين بلغ أربعة وعشرين ألفًا، وأن الروم جمعوا حسب بعض الروايات مئة وعشرين ألفًا، وفي بعض الروايات الأخرى جمعوا مئتي ألف عليهم ماهان الأرمني، والمدعو سقلاب، والقائد المدعو جرجه، وعلى العرب المتنصّرة جبلة بن الأيهم.

اجتمع الروم في الواقوصة قريبًا من اليرموك، وبعث الصحابة إلى الخليفة الصديق، يطلبون منه الإمداد، ويعلمونه بما اجتمع من جيش الروم باليرموك، فكتب الصديق عند ذلك إلى خالد بن الوليد أن يأتي إلى الشام، وينيب مكانه المثنى بن حارثة الشيباني، فسار خالد في تسعة آلاف وخمسمئة فارس إلى الشام، وظل يسير خمسة أيام بلياليها حتى منَّ الله عليه بالوصول إلى أرض المعركة.

وعلى مشارف شرقي دمشق تصادم خالد بالروم عند قرية عدرا، وانتصر عليهم بسرعة، ومن هناك توجه إلى بُصرى فوجد الصحابة تحاربها، ولما علم أهلها بقدوم المسلمين بقيادة خالد بن الوليد صالحوه، وسلموه المدينة فكانت أول مدينة فتحت من الشام.

حاول الروم اللحاق بجيش خالد، لكنه استطاع الوصول إلى مكان تحشد المسلمين، فسار هو وأبو عبيدة وشرحبيل وعمرو بن العاص رضي الله عنهم باتجاه الواقوصة، وفي الطريق اصطدموا بالروم، فكانت وقعة أجنادين.

وتذكر المصادر أن الروم نزلوا فيما بين دير أيوب واليرموك، ونزل المسلمون من وراء النهر من الجانب الآخر وأذرعات خلفهم (مدينة درعا اليوم)، وذلك ليصل إليهم المدد من المدينة.

وتكاثر الروم حتى بلغوا مئتي ألف وأربعين ألفًا، ثمانون ألفًا مسلسلون بالحديد والحبال، وثمانون ألف فارس وثمانون ألف راجل. ثمّ قدم عكرمة بن أبي جهل بمن معه من الجيوش، فتكامل جيش المسلمين ستة وثلاثين ألفًا إلى أربعين ألفًا.

وعندما اجتمع خالد بأمراء الجيوش وجدهم متفرقين فدعاهم، ونهاهم عن التفرق والاختلاف، وقد خطب فيهم خطبة قصيرة، لكن ما فيها من المعاني العسكرية والمعنوية، كان له أبلغ الأثر في انتصار المسلمين. فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال:

(إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، وإن هذا يوم له ما بعده، لو رددناهم اليوم إلى خندقهم فلا نزال نردهم، وإن هزمونا لا نفلح بعدها أبدًا، فتعالوا فلنتعاور (نتداول) الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدًا والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم، ودعوني اليوم إليكم)، فأمروه عليهم، وهم يظنون أن الأمر يطول جدًا.

ففي هذه الخطبة القصيرة معان وعبر أولها: أن خالد قال في أولها إن هذا يوم من أيام الله، فربط بين الجهاد ومرضاة الله سبحانه، ثمّ بَيَّن المعاني السامية لهذا الجهاد؛ ففيه لا فخر لأحد على أحد؛ لأن الجهاد لله وحده، ثمّ ركز على الإخلاص لله وللجهاد، وأن هذا العمل إنما هو لمرضاة وجه الله.

ثمّ حدد نقطة استراتيجية مهمة، وهي قوله: (إن هذا يوم له ما بعده)، بمعنى إن انتصر المسلمون فيه لن يتوقف نصرهم، وإن خسروا فإن هذه الخسارة ستكون خسارة فاحشة، ثمّ أراد خالد أن يمتص ما في النفوس من حب القيادة والإمارة، فقال: تعالوا نتبادل القيادة بحيث يكون لكل قائد نصيب من هذه القيادة.

ولأول مرة في تاريخ العرب والمسلمين يخرج خالد بن الوليد وجيوش المسلمين بتعبئة لم يشهدها العرب والمسلمون من قبل، فخرج في ستة وثلاثين كردوسًا إلى الأربعين، كل كردوس بألف رجل، وكل ألف رجل عليهم أمير. وجعل أبا عبيدة في القلب، وعلى الميمنة عمرو بن العاص، ومعه الشرحبيل بن حسنة، وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان، وأمر على كل كردوس أميرًا، وعلى الطلائع خباب بن الأشم، وكان الذي يحثهم على الحرب أبو الدرداء وأبو سفيان والمقداد بن الأسود يدور عليهم يقرأ القرآن وخاصة سورة الأنفال، وكان خالد على رأس الخيالة، وقد قسم الخيالة قسمين خلف الميمنة وخلف الميسرة؛ ليكونوا قوة متحركة للجيش.

معركتا فحل وأجنادين تمهيدًا لفتح بيت المقدس:

احتاجت الطريق إلى بيت المقدس إلى تكتيك عسكري إسلامي يقوم على كسر قوات الروم القوية المتمركزة على أجناب أرض فلسطين، وقد مَنَّ الله على المسلمين بفتح دمشق، فانقسم الجيش المسلم إلى قسمين رئيسيين؛ قسم اتجه نحو حمص وما وليها من المناطق، وقسم اتجه إلى فلسطين.

وكان لا بد من الاصطدام مع قوات الروم المتمركزة في مناطق محددة تُعدّ ذات أهمية، ويتوقف عليها مصير الفتح وتحرير بيت المقدس وفلسطين، وكان لا بد من التضحيات الجسام ودخول معارك طاحنة قبل الوصول إلى بيت المقدس، وحدثت معركتان فاصلتان على أرض فلسطين قبل حصار بيت المقدس، المعركة الأولى معركة فِحُل، والمعركة الثانية أجنادين.

أما الأولى فإن علماء السِير ذكروا وقوعها قبل فتح دمشق، وذكر غيرهم أنها حدثت بعد فتح دمشق.

والمجمع عليه أن يزيد بن أبي سفيان ترك بعض جيشه عند دمشق، وسار إلى فِحُل حيث التقى بالشرحبيل بن حسنة في غور الأردن، ثمّ سار أبو عبيدة وكان معه جيش المسلمين، فجعل على مقدمة الجيش خالد بن الوليد، وأبا عبيدة على الميمنة، وعمرو بن العاص على الميسرة، وعلى الخيل ضرار بن الأزور، وعلى الرجالة عيضا بن غنم، فوصلوا إلى فِحُل وهي في غور الأردن، فانحاز الروم إلى قرية بيسان، حيث حولوا مياه نهر اليرموك باتجاه المسلمين؛ كي يقطعوا الطريق عليهم، وقد أرسل المسلمون إلى الخليفة عمر يخبرونه بما هم فيه، وما صنعه الروم من تلك المكيدة.

لكن المسلمين تداركوا الأمر وحصنوا مواقعهم، وجاء مدد كبير من المسلمين، وكان على رأس الجيش الشرحبيل بن حسنة، وهو لا يبيت ولا يصبح إلّا على تعبئة، وقد ظنّ الروم أن المسلمين في غفلة، فركبوا في بعض الليالي كي يفاجئوا جيش المسلمين، وكان قائد الروم سقلاب بن مخراق، فهجموا على المسلمين، لكن المسلمين كانوا مستنفرين، فنهضوا نهضة رجل واحد، فقاتلوهم حتى الصباح وذلك اليوم بكامله، فلما أظلم الليل فرّ الروم وقُتِل أميرهم سقلاب، ومن تقادير الله أن الروم غاصوا في وحل المياه التي حولوها لتضر بالمسلمين، وقد قتل من الروم خلق كثير بسبب الغرق، وملاحقة المسلمين لجنودهم، وتذكر مصادر التاريخ أن مجموع من قتل من الروم بلغ ستين إلى ثمانين ألفًا.

بعد معركة فِحُل، عاد الجيش المسلم فانقسم قسمين، قسم توجه إلى حمص، وقسم تابع زحفه إلى أرض فلسطين، وكان على رأس هذا الجيش أبو عبيدة والشرحبيل بن حسنة، فسار الشرحبيل ومعه عمرو بن العاص، فحاصروا بيسان، فخرج الروم إليهم، فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة، ثمّ إن أهل بيسان صالحوا المسلمين على ما صالحت به دمشق، ثمّ توجه الصحابي أبو الأعور السلمي إلى طبرية فاستسلمت للمسلمين.

ولو نظرنا إلى وجهة الجيوش الإسلامية أدركنا أن الزحف باتجاه بيت المقدس بدأ من اتجاهين، اتجاه الشمال، ونزولًا إلى نابلس وجنين وطولكرم، ثمّ إلى رام الله وبيت المقدس، فبعد القضاء على قوات الروم في طبريا وبيسان انفتحت الطريق باتجاه الجنوب أمام الجيوش المسلمة.

أما الاتجاه الثاني، فبدا واضحًا أنه بعد وصول جيوش المسلمين إلى الساحل الفلسطيني بالقرب من يافا اتجهت هذه الجيوش من الغرب إلى بيت المقدس، وكان لا بد من حدوث للصدام الآخر مع الروم عند مدينة الرملة.

استخلف عمرو بن العاص على الأردن أبا الأعور السلمي، وسار بجيش على ميمنته ابنه الصحابي المعروف عبد الله بن عمرو، وعلى ميسرته جنادة بن تميم المالكي ومعه شرحبيل بن حسنة، فلما وصل إلى الرملة وجد عندها جمعًا من الروم، وكان عليهم الأرطبون، وهو من أدهى قادة الروم، وكان معه جيش كبير، فأرسل عمرو بن العاص إلى الخليفة يخبره بالأمر، فراح أمير المؤمنين يبعث المدد إلى عمرو بن العاص، فلما وجد أن جيش المسلمين قد عَظُم وكَبُر، أرسل بعض الفرق إلى بيت المقدس، وكان على رأسها علقمة بن حكيم الفارسي، ومسروق بن بلال العكي، ووقف عمرو مع بقية الجيش على أجنادين.

ثمّ اشتعلت نار المعركة فاقتتل الروم والمسلمون قتالًا عظيمًا كقتال اليرموك، حتى كَثُر القتلى من الطرفين، ثمّ اجتمعت بقية الجيوش على عمرو بن العاص، وذلك حين كانوا قد بدأوا بحصار المقدس من الشمال، وأعياهم من تحصن فيها من الروم، وحاول الأرطبون أن يثني عمرو بن العاص والمسلمين عن استكمال الفتح في فلسطين، وبعث له مندوبًا عنه حمل معه رسالة إلى عمرو بن العاص، قال فيها:

(أنت في قومك مثلي في قومي، والله لا تفتح من فلسطين شيئًا بعد أجنادين، فارجع ولا تغتر، فتلقى مثل ما لقي الذي قبلك من الهزيمة).

فدعا عمرو رجلًا يتقن الرومية فبعثه إلى أرطبون وقال: (اسمع ما يقول لك، ثمّ ارجع فأخبرني). وكتب إليه معه: (جاء لي كتابك وأنت نظيري ومثلي في قومك، لو أخطأتك

خصلة تجاهلت فضيلتي، وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد، واقرأ كتابي هذا بمحضر من أصحابك ووزرائك).

فلما وصله الكتاب جمع وزراءه وقرأ عليهم الكتاب، فقالوا للأرطبون: من أين علمت أنه ليس بصاحب فتح هذه البلاد؟ فقال: صاحبها رجل اسمه على ثلاثة أحرف، فرجع الرسول إلى عمرو بن العاص فأخبره بما قال: فكتب عمرو إلى الخليفة عمر، ويستمده ويقول له:

(إني أعالج حربًا كؤودًا -شديدة- صدومًا وبلادًا ادخرت لك، فرأيك). فلما وصل الكتاب إلى عمر خليفة المسلمين، علم أن عمرًا لم يقل ذلك إلا لأمر علمه، فعزم الخليفة عمر على الدخول إلى الشام لفتح بيت المقدس.

وتذكر مصادر التاريخ أن أبا عبيدة لما فرغ من دمشق كتب إلى أهل إيلياء (بيت المقدس)، يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، أو يبذلون الجزية أو يؤذنون بحرب، فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه، فركب إليهم بجنوده، واستخلف على دمشق سعيد بن زيد.

ثمّ حاصر بيت المقدس، وضيق عليهم حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فكتب إليه أبو عبيدة بذلك. فاستشار الناس فأشار عثمان بن عفان بأن لا يركب إليهم ليكون أحقر لهم، وأرغم لأنوفهم، وأشار علي بن أبي طالب بالمسير إليهم؛ ليكون أخف وطأة على المسلمين في حصارهم بينهم، فرغب الخليفة فيما قال علي، ولم يرغب بما قال عثمان.

وسار بالجيوش نحوهم واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب، وسار العباس بن عبد المطلب على مقدمته، فلما وصل إلى الشام تلقاه أبو عبيدة ورؤوس الأمراء كخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان. ثمّ سار حتى صالح نصارى بيت المقدس، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثمّ دخل المسجد من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، ويقال إنه لبى حين دخل بيت المقدس (لبيك الله لبيك) إلخ... وصلى تحية للمسجد بمحراب داود بالمسلمين في صلاة الغداة من الغد، فقرأ في الركعة الأولى سورة ص وفي الركعة الثانية سورة الإسراء.

ثمّ جاء إلى الصخرة فاستدل مكانها من كعب الأحبار، وأشار عليه كعب أن يجعل المسجد من ورائه، فقال ضاهيت اليهودية، ثمّ جعل المسجد في جنوب بيت المقدس، وهو المسجد العمري اليوم، ثمّ نقل التراب عن الصخرة في طرف ردائه، ونقل المسلمون معه ذلك، وقد كان الروم قد جعلوا الصخرة مزبلة؛ لأنها حسب اعتقادهم "قبلة اليهود"، وكان فتح بيت المقدس سنة عشرة هجرية.

يلاحظ من خلال ما تقدم أن المدينة الوحيدة التي فتحها خليفة المسلمين هي القدس، فلم يفتح دمشق، أو أي مدينة أخرى، إنما فتحها القادة العسكريون، وهذا دليل على مكانة بيت المقدس بين المسلمين؛ لأنها آية من آيات الكتاب المبين، وقد حظيت باهتمام بالغ من قبل الخليفة عمر ومن قبل المسلمين؛ لما للمسجد الأقصى من أهمية دينية تقارب أهمية المسجد الحرام ومكانته.

مركزية فلسطين في التصدي للغزو الغربي:

بعد أن فتحت القدس سلمًا على يد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، استقرت الأوضاع فيها، وباتت أرض فلسطين مهوى أفئدة العرب والمسلمين، فراحت قبائل برمتها تهاجر من قلب الجزيرة العربية إلى هذه الأرض المباركة، وتحيط بمدينة القدس تبركًا وتعظيمًا للمسجد الأقصى، مسرى رسول الله ﷺ.

وظلت الأوضاع على ما هي عليه طيلة فترة الخلفاء الراشدين، الذين أولوا فلسطين والقدس أهمية بالغة، خاصة فيما يتعلق بحلقات الدروس الدينية وبناء المساجد والمدارس والسبل وما إلى ذلك.

وتبدأ مرحلة جديدة وعصر جديد ببروز القوى الأموية بعد فتنة الخليفة عثمان رضي الله عنه.

فبعد استشهاد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بايع أصحابه ابنه الحسن، وجرت مراسلات بين الحسن رضي الله عنه، ومعاوية انتهت إلى تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، لما في

ذلك من حقن لدماء المسلمين، كان ذلك سنة 41هـ - 662م، وسميت هذه السنة بعام الجماعة، وفيها جرت بيعة معاوية بالخلافة في مدينة القدس، وقد أشارت إلى ذلك جميع المصادر التاريخيّة العربية[1].

ولعل اختيار معاوية لمدينة القدس مكانًا للبيعة دليل على الأهمية الدينية القصوى التي تمتعت بها المدينة لدى المسلمين؛ فالقدس تكاد تقارب في الأهمية مكة المكرمة ما دام أسري برسول الله ﷺ إليها، وعرج إلى السماء منها، وحولها جاءت أحاديث المصطفى كثيرة واضحة، عدا عن كونها آية من آيات الكتاب المبين (سورة الإسراء).

وباعتقادنا أن اهتمام الخلفاء الأمويين بالقدس بدءًا بمعاوية بن أبي سفيان، يذكرنا بما قدمه المسلمون من شهداء ومعارك في سبيل تحريرها من الرومان، وتذكرنا بأنها المدينة الوحيدة التي جاء الخليفة عمر رضي الله عنه ليفتحها حسب طلب أهلها، وباعتقادنا أيضًا أن هذا الاهتمام يبعث برسالة معنوية هامة لكل القوى الخارجية وغيرها، مفادها أن هذه المدينة أحق بالمسلمين من غيرهم؛ فهم الذين أعادوا لها روحها النبوية، ومكانتها لدى النصارى وأتباع المسيح عليه السلام.

وفي العقد الثاني من خلافة معاوية زار الرحالة آركولف مدينة القدس، وقال بأن مسجدها يتسع لثلاثة آلاف مصل، ويستخلص من هذا الخبر أن معاوية هو الذي شيد هذا المسجد، وتمت بيعته فيه، وقد حافظ معاوية على محراب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعندما فرغ منصب الخلافة بعد موت معاوية الثاني عقد مؤتمر الجابية، الذي حضره زعماء العشائر اليمينة مع عدد من أبرز رجال بني أمية، وفي هذا المؤتمر بويع مروان ابن الحكم بالخلافة، وفي خلافة عبد الملك بن مروان لاقت مدينة القدس رعاية لا مثيل لها.

وقد جرت بيعة عبد الملك أيضًا في القدس، وكان ذلك سنة 65هـ، وبعد بيعته بسنة ابتدأ ببناء قبة الصخرة وعمارة المسجد الأقصى.

1 ورد ذلك في مغازي الزهري، ص 160، وأنساب الأشراف ج 3 ص 267 وتاريخ الطبري، وتاريخ اليعقوبي، والأخبار الطوال، ومروج الذهب، والأنس الجليل.

وما يلفت النظر أن الخليفة الأموي عبد الملك قد أوعز إلى اثنين من أشهر البنائين لبناء قبة الصخرة وعمارة المسجد الأقصى الأول: رجاء بن حيوة الكندي، ويزيد بن سلام، وكان من أهالي مدينة القدس وقد ولد فيها.

وتروي المصادر القديمة والحديثة أن عبد الملك هو المصمم لمشروعه الكبير في بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى، حيث وصف بنفسه الشكل الذي يجب أن تبنى عليه القبة، فصنع الصناع له مجسمًا مصغرًا للقبة، وهو الآن موجود شرق قبة الصخرة، ويقال له قبة السلسلة، فأعجبه تكوينها وأمر ببنائها كهيئتها، وقد استمر العمل بها ثماني سنوات.

وجاءت بتصميم فريد ورائد في تاريخ العمارة العربية الإسلامية، لقد كان واضحًا أن اهتمام عبد الملك ببناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى يدل على أنه كان مصممًا على إزالة الآثار الرومانية، ليستبدل بها آثارًا عربية مسلمة، وبذلك كانت معركته تحديًا للقوى الخارجية، وهي معركة هوية القدس وهوية فلسطين بأسرها، ومما يجدر ذكره أن هذا التأثير العربي في واقع مدينة القدس دفع رجال الدين من المسيحيين العرب أن يتبنوا العربية شكلًا ومضمونًا.

وكان سليمان شقيق الوليد واليًا على الرملة وجند فلسطين، وعندما نعي له أخوه ترك الرملة وذهب إلى القدس، وأتته الوفود بالبيعة، فلم ير وفادة كانت أهنأ من الوفادة إليه، فكان يجلس في قبة في صحن مسجد بيت المقدس مما يلي الصخرة، وقد همّ سليمان بالإقامة في بيت المقدس، واتخذها منزلًا وجمع الأموال والناس فيها.

وحال بين سليمان وبين اتخاذه القدس عاصمة لدار الخلافة إرسال حملة كبيرة برية وبحرية بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لفتح القسطنطينية، فاضطر إلى مغادرة القدس والاستقرار في مرج دابق في شمالي بلاد الشام؛ ليشرف بنفسه على أعمال الحملة.

ومن المعروف أن فلسطين خضعت للحكم الروماني نحو أربعمئة سنة، وقد حاولت أن تصبغها حضاريًا وثقافياً واجتماعيًا بالصبغة الرومانية الغربية، حتى أن الكنائس سيطر عليها

الطابع الغربي، فلم يكن لرجال العقيدة المسيحية العرب أي دور يذكر؛ لأن جميع من سيطروا على هذه الكنائس كانوا من اليونان والرومان.

ومع استكمال بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة انهالت على مدينة القدس مئات الألوف من العرب، وراحوا يعمرون القصور والبيوت ذات الطراز العربي، وما هي إلا سنوات حتى انصبغت القدس بالصبغة العربية الإسلامية، فانحسرت اللغة الإغريقية، وكذلك ثقافتها لحلول العربية محلها، وقد أسهم المسيحيون السريان العرب في هذا المجال كثيرًا.

ومع انقضاء خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى دب الخلاف بين أفراد الأسرة الأموية، فضعفت الهيمنة على بعض المناطق، مما دفع أبناء الشعب بعيدًا عن الحكام؛ ليحصنوا الثغور، ويقووا وجودهم في وجه الحملات البيزنطية التي حاولت في بعض الأحيان العودة إلى احتلال بعض أجزاء الوطن العربي.

تبرز لنا في هذه الفترة سيرة الأميرة الفلسطينية ذات الهمة، التي تنفرد من بين المدونات العربية بذكر تفاصيل الصراع بين العرب والمسلمين من جهة والدولة البيزنطية من جهة أخرى.

تورد السيرة قصة الصحصاح، جد الأميرة، الذي شارك في الحرب ضدّ الروم وحصار القسطنطينية، أيام سليمان بن عبد الملك، وعندما بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة الأموية، تحمل الشعب مسؤولية الدفاع عن القدس وأرض فلسطين.

وقد أرخت السيرة للحروب التي دارت بين الشعب العربي الفلسطيني والروم البيزنطيين، الذين حاولوا أكثر من مرة غزو فلسطين أواخر العصر الأموي.

ويرد في السيرة بكثرة ملفتة للنظر ذكر المدن والثغور الفلسطينية غزة ويافا وحيفا، إضافة إلى بعض الجزر كجزيرة ملطية المتاخمة للمتوسط من الشمال، التي كانت الموقع الأول في الدفاع عن الساحل الفلسطيني اللبناني.

وقد تبين أن الهدف الجوهري من سيرة ذات الهمة الفلسطينية -كما يقول الباحث شوقي عبد الحكيم- هو التأريخ لسيرة تلك الأسرة الفلسطينية وحروبها وتصديها للغزو الخارجي؛ فقد أكدت السيرة أن رجال القبائل العربية في فلسطين حموا ساحلها، وحصنوا مدنها، وخاصة مدينة القدس تحصينًا قويًا؛ كي لا تعود إلى نير الاستعمار الروماني.

وقد تنبهت السيرة إلى أن الغزو الخارجي لفلسطين والقدس سيأتي من البحر تحديدًا؛ فلذلك كثرت الحصون والأسوار في مدن الساحل الفلسطيني، وقد لعبت دورها في منع البيزنطيين من النزول إلى أرض فلسطين، على مدى عشرات السنين وحتى في زمن الدولة العباسية الأولى.

من هنا نستنتج أن القدس شكلت وتشكل محور صراع أساسي بين المسلمين وأعدائهم، وهي تحمى اليوم من قبل شعبها كما حميت قديمًا عندما ضعف الحكام وتباطؤوا في نجدتها.

بيت المقدس والعلاقات بين الدولة العباسية والإفرنج:

تزعم بعض المصادر الغربية أن هارون الرشيد - من خلال علاقاته بشارلمان والإفرنج- تعهد للملك الإفرنجي بوضع وصاية ما على بيت المقدس والأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين وحماية النصارى في هذا البلد، وقد أثيرت شبهات كثيرة حول موقف الخليفة العباسي هارون الرشيد من هذه المسألة، حتى تسببت في التشكيك بإيمان الرجل وإخلاصه لحقوق المسلمين، فدرءًا لهذه الشبهات وقف كثير من الباحثين والدارسين موقف المحلل الموضوعي لهذه العلاقات، ومن ثمّ نفي الشبهات التي يثيرها الإفرنج لتشويه الخليفة العباسي في نظر أبناء الإسلام.

الواقع أن أرض فلسطين وبيت المقدس هي أرض عربية منذ القدم، وجاء الفتح الإسلامي زمن الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما تحريرًا لهذه البقعة المقدسة من دنس الاستعمار والغزو الروماني البيزنطي.

ومع ذلك، فقد ترك المسلمون لمسيحيي أرض فلسطين حرية العبادة والحفاظ على الأماكن المقدسة المسيحية؛ مثل كنيسة القيامة وكنيسة المهد، بدءًا من عصر الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه وحتى الآن.

وكان واضحًا أن العهدة العمرية قد حددت في بنودها خروج الرومان من القدس وأرض فلسطين، وعدم سكن اليهود فيها وتركها لأصحابها الحقيقيين، وظلّ هذا التقليد سائرًا في زمن الأمويين والعباسيين.

وكان طبيعيًا أن تنصّب الدولة واليًا على فلسطين باعتبارها جزءًا من الدولة، ومنحت الكنيسة في بيت المقدس صلاحيات دينية لا تتعداها إلى الشؤون السياسية والعلاقات الخارجية.

ولما كان المشرفون على الكنيسة في القدس هم من اليونان، وليسوا من العرب تجاوزوا الصلاحيات الممنوحة لهم، وأخذوا يقيمون علاقات مع دولة الإفرنج دون الرجوع إلى السيادة العباسية وسلطتها في بغداد، وأخذت هذه العلاقات منحى خطرًا إذ افترضت أن شارلمان هو المكلف دينيًا بالهيمنة على الأماكن المقدسة للمسيحيين في القدس والشرق، وهذا ما يخالف أبسط قواعد السيادة العباسية على أراضيها.

وقد ذكر بعض المؤرخين الإفرنج قيام سفارات بين بطريركية بيت المقدس، وشارلمان ملك الإفرنج، وذكروا أن أربع بعثات زارت شارلمان متوجهة من فلسطين، وذكروا أن البعثتين بعثهما ملك الإفرنج إلى بيت المقدس، ولا يهمنا في هذا السياق سوى ما ذكر عن دور للرشيد في منح صلاحيات دينية وسياسية لشارلمان في الأرض المقدسة، وقد تأول الباحثون حول أهداف هذه العلاقات، فمنهم من قال إن هذه العلاقات وعلاقات الرشيد بشارلمان تحديدًا، أدت إلى حصول شارلمان على صلاحية حماية الأماكن المقدسة في فلسطين، ومن هؤلاء برييه المؤرخ المعاصر المختص بالتاريخ الكنسي، وفاسيلييف وبكلر مع توسع بكلر في هذا التأويل.

ويرى برييه أن بطريرك القدس بعث مبعوثًا للفرنج؛ ليقنع شارلمان بقبول مهمة حماية النصارى في فلسطين، ويبني افتراضه على ما كان عليه النصارى هناك في ذلك الوقت من حال غير مرضية.

والواقع أن النصارى في فلسطين لم يكونوا في حال غير مرضية آنذاك حتى يطلب البطريرك من شارلمان حمايتهم، ثمّ إن الدولة العباسية لم تكن لتسمح بمثل هذا الطلب، والبطريرك كان يدرك أن مثل هذه الاتصالات في مثل هذا الموضوع كانت ستؤدي إلى غضب الدولة العباسية عليه، كما غضبت على سابقه البطريرك إيليا الثاني الذي اتهم بأنه جاسوس لبيزنطة، فنفي إلى بلاد فارس، وظل هناك زمنًا طويلًا[1].

ونعيد إلى الأذهان والآذان أن البطاركة الذين كانوا يشرفون على الكنائس في فلسطين ليسوا من العرب بل جميعهم من الغربيين وظلوا كذلك إلى يومنا هذا.

والواقع أن بعثة البطريرك الذي يشرف على كنيسة القيامة، كان هدفها التأكيد للبابا في روما أن نصارى الشرق العربي يؤيدون تقديس الأيقونات، وهو ما تؤيده كنيسة روما، ويذكر برييه أن بطريرك القدس قد بعث بمفاتيح كنيسة القيامة مع بعثته إلى شارلمان؛ لتقديم البركة، ووضع البطريرك نفسه تحت حماية الملك الإفرنجي مباشرة.

ويرى غير برييه أن المصادر الأصلية لا تورد كلمة حماية في هذا المجال، وتتفق أن المفاتيح وغيرها من الهدايا كانت بمثابة منح البركة المقدسة ليس أكثر.

أما ما قيل عن علاقة الرشيد بشارلمان، وأنها أدت إلى اتفاق بينهما يجيز لشارلمان بسط حمايته على بيت المقدس، فإن المصادر العربية لا تشير إلى ذلك لا من قريب ولا من بعيد، ولا لأي اتفاق، مثلما لا تشير إلى أي تبادل للعلاقات، وينفرد المؤرخ أينهارد، دون سواه، بذكر منح الرشيد لشارلمان حماية بيت المقدس، أو الوصاية عليه.

1 سليمان الرحيلي، العلاقات السياسية بين الدولة ودولة الفرنجة، ص 53.

وتذكر بعض المصادر أن شارلمان قد قدم المساعدات المالية لبطريركية بيت المقدس، مثلما قدم المساعدات لكثير من الكنائس المنتشرة في البلاد العربية، وهذا لا يعني بحال من الأحوال حماية بيت المقدس أو الوصاية عليه.

إن ادعاء الغربيين بأن علاقات ما كانت قائمة بين الرشيد والإفرنج، وأن الرشيد منح شارلمان حق الوصاية أو الحماية على بيت المقدس يقصد من ورائها عدة أهداف:

1- اعتبار تلك العلاقة وتلك المنحة تقليدًا جرى عليه الخلفاء المسلمون، وهم رأس السلطة الدنيوية والدينيّة؛ لذلك من حق ملوك أوروبا وزعمائها وراثة هذا التقليد حتى وقتنا الحاضر.

2- تبرير الهجمات الصليبية، التي جاءت في خلال تسع حملات، على بيت المقدس وبلاد الشام ومصر، بدءًا من القرن الحادي عشر، والتي استمرت قرنين من الزمن، وتثبيت أن للإفرنج الحق في حماية النصارى في فلسطين والشرق العربي، ولهذا وجدنا البابا أوربان الثاني يحمس الفرنسيين وغيرهم على غزو بلاد الكفار!! من العرب الذين يضطهدون المسيحية وقبر المسيح، حسب زعمه.

3- تشويه صورة الخليفة العباسي هارون الرشيد؛ لأن هذا الخليفة حافظ على قوة الدولة العربية المسلمة أمام الفرنجة والبيزنطيين والطامعين بالقضاء على دار الخلافة الإسلامية.

4- إظهار عصر شارلمان وكأنه لا يقل حضارة وقوة عن حضارة الشرق الإسلامي وقوته، بينما الحقيقة تقول بأن أوروبا كانت تعيش فترة ظلام وهمجية، خيمت على جميع مجالاتها الحضارية.

إضافة لذلك، فإن الإفرنج والبيزنطيين لم يرق لهم أن يكون العنصر الإسلامي هو الأقوى عالميًا؛ لذلك حاولوا اختراع علاقات بين الرشيد وشارلمان؛ ليقولوا إن دولة أوروبية كانت تنافس دولة الخلافة الإسلامية على مستوى العالم.

لقد ذهب الخيال ببعض المصادر الغربية إلى الادعاء بقيام شارلمان متخفيًا بالحج إلى القدس، وجعل بعضهم حجة حملة عسكرية أوصلته إلى القدس، وبدأت الحكاية بعبارة تبجحية عأرضة لدى أينهارد، مؤرخ شارلمان وصديقه (سنة 840) قال فيها:

> "كانت علاقاته مع هارون ملك العرب والفرس الذي حكم الشرق كله تقريبًا باستثناء الهند ودية جدًا؛ فقد آثر هذا الأمير مودته على مودة جميع ملوك الأرض وحكامها الأقوياء، وعدّه وحدَه يستحق علامات التكريم والتشريف، وبناء عليه عندما مثل السفراء الذين أرسلهم شارلمان لزيارة الضريح الأعظم قداسة ووضع قيامة ربنا ومخلصنا بين يديه مع هدايا، أعلنوا عن رغبات سيدهم، وهو لم يمنحهم الذي سأله فقط، بل أعطى ملكية تلك البقعة المباركة والمقدسة، وعندما عادوا بعث بسفرائه معه، وبهدايا فخمة إضافة إلى كميات من العطور ومنتجات ثمينة أخرى من الأراضي الشرقية، وكان قبل عدة سنوات من هذا طلب شارلمان منه إرسال فيل، فأرسل له الفيل الوحيد الذي امتلكه".

وتعرض المؤرخ وليم الصوري إلى هذا الموضوع، فتحدث عن إبرام معاهدة ما بين الرشيد وشارلمان، من خلال عمل الرسل الذين ترددوا بينهما جيئة وذهابًا لعدة مرات ثم أورد كلام إينهارد الذي تقدم، وذكر بأن شارلمان كان يرسل المساعدات إلى جميع المسيحيين الفقراء في سورية ومصر وإفريقيا والإسكندرية وقرطاج[1].

ومع ذلك يبدو أن مالًا قد أرسله شارلمان جرى استغلاله في بناء دار ضيافة للزوار والحجاج[2].

على كل حال، فإن الدولة العباسية -كما هو حال الدولة الأموية وحال دولة صدر الإسلام- لم تفرط بالأرض المقدسية، بل كانت أكثر حرصًا على المستوى الرسمي، وإذا كان السلاطين المماليك والأيوبيون لم يفرطوا بشبر من أرض القدس -وهم على ما هم

1 تاريخ وليم الصوري، ص145-146.
2 د. سهيل زكار، القدس في التاريخ، الجزء الثاني، ط 1، 2002، منشورات طرابلس الغرب، ص85.

عليه من الانقسام والضعف- فكيف بهارون الرشيد، وهو الذي كانت الدولة الإسلامية في عهده على قدر هائل من القوة والرفعة على الصعيد العالمي وليس هناك دولة تضاهيها؟ وكيف يفرط بالقدس ويتركها تحت وصاية شارلمان الإفرنجي؟

بعض الفترات التاريخية المغيبة في تاريخ القدس:

في الثلث الثاني من القرن الرابع الهجري، راحت تنهار الدولة العباسية وتظهر دول هنا وهناك، وكل دولة تحاول السيطرة على بلاد الشام ومصر.

فعندما برزت الدولة الطولونية لم تعرف بلاد الشام الأمن والاستقرار بسبب النشاطات المدمرة للقرامطة.

وعلى الرغم من استباحة القرامطة لعدة من المدن الشامية، إلا أن حرمة مدينة القدس تمت المحافظة عليها، وانتهى الحكم الطولوني إثر ضربة قاصمة للقرامطة على أيدي الجيوش العباسية، ثمّ ما لبثت أن ظهرت دولة الإخشيديين، ولم تشهد مدينة القدس ما هو متميز وانتهى حكم الإخشيديين باستيلاء الفاطميين على مصر، وقد اضطربت أحوال فلسطين في أيام الخليفة الفاطمي العزيز الذي رمم المسجد الأقصى وأعاد إعمار المدينة وتجديدها.

لكن الذي يلفت النظر أن التاريخ لم يركز على دراسة أوضاع القدس وفلسطين في زمن الخليفة المستنصر (427-487)؛ ففي هذه الفترة اجتاحت قبائل الغز خراسان ثمّ العراق فالشام فالجزيرة، وقد أثر ذلك على مدينة القدس. وفي تلك الفترة أقام الإمام الغزالي بعض الوقت في القدس حيث اعتكف في مسجدها، ثمّ انتقل للاعتكاف في جامع دمشق، كما زار القدس في هذه الفترة الرحالة الفارسي ناصر خسرو، كما أن حركة ما يسمى بالحج المسيحي ازدادت بشكل ملحوظ.

وقد تزامن تدفق الحجاج على القدس وفلسطين، مع اضطراب الأحوال وانعدام الأمن في بلاد الشام حتى شمل القدس نفسها إثر اجتياح أمواج الزحف الغُزّيّ وتأسيس دويلات السلاجقة.

عرفت أول مجموعة غزية دخلت إلى الشام الجنوبي ثمّ الشمالي باسم الناوكية، وكان السلطان ألب أرسلان قد ترك في الشام الشمالي مجموعات غُزّية جديدة اشتهرت باسم التركمان، وكان أبرز هؤلاء أتسز بن أوق الخوارزمي، وقد سعى هذا القائد إلى تملك دمشق وسار إلى فلسطين، فاستولى على مدينة الرملة، ومن الرملة قصد القدس وحاصرها، ثمّ انتزعها من الفاطميين، واستولى أيضًا على طبرية. وهنا لا بد أن نتوقف قليلًا عند هذه المرحلة.

لاحظ العرب والمسلمون ازديادًا ملحوظًا لسفر المسيحيين الفرنجة إلى القدس وفلسطين مما جعل الشكوك تعشش في نفوسهم لهذه الحركة المريبة، ما دفع بعض أمراء السلاجقة للاستيلاء على فلسطين والقدس كونها تتمتع بمكانة دينية مهمة لدى المسلمين وتتميز بموقع استراتيجي خطير، خاصة ساحلها الطويل على المتوسط واحتمالات الغزو الإفرنجي لها؛ لذلك وجدنا أتسز بن أوق الخوارزمي يتخذ من مدينة القدس مركزًا له، حيث حوّل المجمع الديري الذي عرف باسم برج داود إلى ما يشبه القلعة، وفي القدس ألغى الدعوة للخليفة الفاطمي، وأحلَّ محلها الدعوة للخليفة العباسي مع السلطان السلجوقي، وبعث إلى بغداد يخبر ما أنجزه، ومن القدس أخذ يغير أتسز على دمشق حتى أنهكها، وفي الوقت نفسه قضى على الفئات الغزية المعارضة له.

وثابر على اتخاذ القدس حاضرة له فيها ذخائره وعيالاته وجنده، وفي سنة 468هـ - 1076م تمكن من الاستيلاء على دمشق، وأصبح سيد الشام الجنوبي، من دمشق إلى القدس إلى الرملة وباقي أرض فلسطين.

ودبّ الصراع الدموي بين أتسز والتركمان من جهة والفاطميين من جهة أخرى، كان أهل القدس ضحايا لهذا الصراع، لكن الأحداث تسارعت حيث تمَ لـ(تتش بن ألب أرسلان) الاستيلاء على دمشق، ثمّ على فلسطين، وتخلص من أتسز وأتباعه.

لم تنعم القدس بالاستقرار، وخاض سلاطين السلاجقة حروبًا متواصلة على أرض فلسطين والقدس.

في هذا الوقت عين تتش، أحد زعماء التركمان على القدس، يدعى أرتق بن أكسب، وذلك بسبب قدراته العسكرية، وقد أمضى أرتق معظم وقته في مدينة القدس حتى توفي، وتسلم بعده ابناه حكم القدس وهما سكمان وإليغازي، وظلا متمسكين بالقدس حتى استيلاء الفاطميين عليها سنة 1098، وبذلك شكلت هذه الفترة التمهيد للغزو الصليبي.

ويجدر بنا هنا أن نعيد تقييمنا للأسباب التي دفعت الفرنج لشن حملات الحروب الصليبية واحتلال القدس؛ فإلى جانب الحس الاستعماري لدى الفرنج، وكذلك الطمع الاقتصادي برزت مجموعة أسباب دينيّة لم يكن للعرب يدّ فيها، وللموضوع صلة بما قامت به العناصر غير العربية من تركمان وغُزّ، عندما دخلت أمواجهم وراء بعضها بلاد الشام وخاصة فلسطين.

عندما احتلت قبائل الغُزّ فلسطين والقدس، عسفوا بالمسلمين والمسيحيين، وقاموا بهدم بعض الكنائس في فلسطين والشام، والأقسى من ذلك أنهم أمروا بهدم كنيسة القيامة، فأُنزلت بأسرها إلى القرار، إلا ما تعذر هدمه، وقد انعدم الأمن والاستقرار، وازداد تدفق حركة الحجاج المسيحيين من أوروبا، لكن الأمراء من التركمان أرهقوهم بالضرائب والمعاملة السيئة، مما دفع لازدياد تنامي المشاعر الدينيّة المعادية للإسلام والمسلمين، على الرغم من أن الاضطهاد شمل الجميع مسلمين ومسيحيين.

ويورد الدكتور سهيل زكار استنادًا على ما أورده المؤرخون، كيف خرج التركمان بقيادة أتسز نحو القدس بعد أن طردوا منها على أيدي الفاطميين.

(دخل أتسز من رتق في سور القدس، ومعه جماعة من العسكر، وخرجوا من المحراب، وفتحوا الباب ودخل العسكر، فقتلوا ثلاثة آلاف إنسان، واحتمى قوم بالصخرة والجامع، فقرر عليهم الأموال، حيث لم يقتلهم لأجل المكان، وأخذ من الأموال شيئًا لا يبلغه الحصر، وقتل قاضي القدس).

فهذا ما لحق بالمسلمين على يدّ الغزّ، فليس للفرنجة حجة بأن المسلمين اضطهدوا المسيحيين في القدس، وتروي الموسوعة الشاميّة أنه في الوقت الذي عمّت فيه الاضطرابات

وسيطرة التركمان المتعصبين على القدس، تكاثرت قوافل الحجاج الأوروبيين، وكان هؤلاء الحجاج لا يصلون إلى القدس إلا بعد عناء في البحر، وبعد التعرض لمخاطر كبيرة في أرض الشام وسواها، لقد كان التركمان الغزّ بعيدين عن التسامح والمدنية والحضارة، وقد شكلت المضايقات التي تعرض لها الحجاج من أوروبا خلفية حكاية بطرس الناسك، ثم دوره بالدعوة في أوروبا إلى حمل الصليب والتوجه نحو القدس.

وعندما عاد بطرس الناسك إلى أوروبا أبلغ البابا أوربان الثاني بالرسالة التي حملها، وبما شاهده وتذكر الروايات الأوروبية أن البابا تفاعل مع الرسالة التي وصلت ومع الأخبار التي حملها بطرس؛ لذلك دعا إلى مؤتمر كليرمونت سنة 1095م، وأعلن عن قيام الحروب الصليبية، وفي الحقيقة تحولت أخبار نشاطات بطرس إلى ما يشبه الأسطورة؛ فدعوة البابا أوربان الثاني كانت لها خلفيات قديمة ومعاصرة له، دور بطرس هو الأدنى تأثيرًا فيها.

ما نريد أن نؤكده هنا أن المسلمين والمسيحيين في القدس لاقوا الويلات على أيدي التركمان، ولم يفعل العرب والمسلمون ما يشير إلى اضطهاد ضدّ المسيحيين، ومن الغريب أن بطرس الناسك قد شاهد بأم عينه هذا الاضطهاد الجماعي الذي لا يميز بين المسلمين والمسيحيين، لكن يبدو أن أوربان الثاني، وقادة أوروبا وجدوها فرصة سانحة لغزو الشرق العربي ونهب خيراته واستعماره.

ماذا يعني السابع والعشرين من رجب؟

من نعم الله على الأمة الإسلاميّة أن تتالت أحداث متلاحقة في ثلاثة أشهر فضيلة هي رجب وشعبان ورمضان.

في السابع والعشرين من رجب حدث الإسراء والمعراج، وفي النصف من شعبان جاء الأمر الإلهي بتحويل القبلة، وفي الآحاد من شهر رمضان نزل القرآن على قلب رسول الله ﷺ في ليلة مباركة؛ هي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

ومن نِعم الله أيضًا أن الأحداث الثلاثة نزلت فيها آيات قرآنية واضحة، فقطعت باب الاجتهاد والتخمين؛ إذ جاءت الآيات قاطعة لا لبس فيها، يقول تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [1].

ويقول تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ 144 [2].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ 1 [3]. **ولكل شهر من هذه الأشهر الثلاثة فضائله ونعمه على أمة الإسلام. لكننا نتوقف عند شهر رجب الذي يفرض على الأمة تذكّر حدث عظيم في تاريخ فلسطين والمسجد الأقصى، بل وفي تاريخ الأمة الإسلاميّة.**

هذا الحدث هو تحرير بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي ومجاهدي الأمة، لعل كل عربي ومسلم يعرف أن معركة حطين كانت فاصلة بين المسلمين والصليبيين الفرنجة، ويعرف أيضًا أن تحرير بيت المقدس جاء بعد انكسار هؤلاء الصليبيين الفرنجة في حطين بعد أقل من ثلاثة أشهر.

وبالعودة إلى هذا الحدث العظيم بشكل دقيق، ينفتح أفق دراسة التاريخ بشكل تحليلي لا يكتفي بإيراد الخبر وسرده.

يورد أبو شامة المقدسي أن صلاح الدين جمع في جيشه الأعراب والأعاجم والأتراك، وسار بهم إلى الكرك، وحاصرها ثمّ إلى الشوبك، وحاصرها، وأخذ يغير على محيط طبريا، ويقول اجتمع الإفرنج بخمسين ألف مقاتل، وكان مع السلطان صلاح الدين ما بين اثني عشر ألفًا وعشرين ألفًا، وحاصر طبريا، وراح ينقب سورها إلى أن فتحها الله عليه، وتحرك الصليبيون

1 الإسراء: 1.
2 القرآن الكريم، سورة البقرة: 144.
3 القرآن الكريم، سورة القدر: 1.

من صفوريّة، والتقت الجموع عند قرني حطين، وهناك دارت الدائرة على الإفرنج، وانكسروا انكسارًا عظيمًا، لم يروا مثله من قبل، وأُسر في المعركة ملك الصليبيين جفري، الذي كان ملكًا على القدس، وأسر معه شقيقه، وأمير الكرك أرناط، وأمير جبيل، وأمير اسكندرونة، وعدد من الأمراء الصليبيين، الذين حضروا من كل المدن الساحلية المحتلة.

ويعلق أبو شامة المقدسي «ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين غليل».

وقال المؤرخ بهاد الدين بن شداد: «كان الواحد منهم العظيم يخلد إلى الأسر خوفًا على نفسه، أما أرناط صاحب الكرك، فكان السلطان قد هدر دمه إن ظفر به، وسبب ذلك أنه غدر بالحجاج المسلمين وهم يقصدون الحج فقتل منهم خلقًا عظيمًا».

وقبل الفتح العظيم للقدس حرّر صلاح الدين مدينة عكا، وحرّر من كان فيها من أسرى المسلمين وعددهم أربعة آلاف، ثمّ فتح حيفا ونابلس وقيساريّة وصفوريّة والناصرة، وعندما فتح عكا رتب فيها المنبر والقبلة وصلى الجمعة فيها، والملاحظ أن العادل أخا صلاح الدين قدم بجيش من مصر، ففتح المجدل ويافا ودبورية وجنين وزرعين والطور واللجون وبيسان والزيب ومعليا والبعنا ومنواث وأرسوف.

ويقول ابن شداد: «ثمّ أرسل السطان إلى تبنين ابن أخيه، فأمهل الصليبيين خمسة أيام، ثمّ أطلقوا الأسارى، وهذا دأبه في كل بلد يفته أنه يبدأ بالأسارى، فيفك قيودها، فخلص في تلك السنة أكثر من عشرين ألف أسير». ثمّ تسلم السلطان عسقلان وصرفند وبيروت وجبيل وكان صاحبها في الأسر.

يقول ابن شداد: «لما تسلم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس، شمّر عن ساق الجِدّ والاجتهاد في قصده، وأبلغ جميع الناس والعساكر في الساحل الشامي، فتوافد إليه المجاهدون من كل صوب وحدب، حتى بلغ عددهم الستين ألفًا، ما عدا النساء والصبيان».

وبدأ حصار القدس حتى اشتد، وكان فيها ما يقارب ستين ألفًا من الصليبيين وخمسة آلاف

أسير مسلم، ثمّ فتحت القدس، وكان يوم جمعة، وفي السابع العشرين من رجب ذكرى الإسراء والمعراج، فكانت فرحة المسلمين مضاعفة، وكانت هذه الفتوح إحدى نِعم الله على المسلمين، فتح يوم الجمعة، وفي السابع والعشرين من رجب ذكرى الإسراء إلى بيت المقدس.

قال المؤرخ العماد: «تسلم المسلمون القدس يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها، وضاق وقت الفريضة وتعذر أداؤها، وللجمعة مقدمات وشروط لم يمكن استيفاؤها، وكان المسجد الأقصى، ولا سيما محرابه، مشغولًا بالخنازير، مغمورًا بالنجاسات والأبنية، فأمر السلطان بكشف ذلك كله وتنظيفه وتطهيره، فاجتمع الخلق حتى كشفوه ونظفوه ورشوه وفرشوه، وأمر باتخاذ المنبر الذي كان قد صنعه نور الدين زنكي الشهيد رحمه الله، فنجروه وركبوه فخطب عليه في الجمعة التالية القاضي محي الدين محمد بن علي القرشي».

وأمر السلطان بكشف الصخرة المباركة وتطهيرها، ثمّ صانها بشبابيك من حديد، وحمل إليها وإلى محراب الأقصى مصاحف ومربعات ورتب الأئمة، وقد تولى ابنه تقي الدين كنس تلك الساحات وغسلها بالماء مرارًا، حتى تطهرت ومن ثمّ عطرها، وأمر السلطان بعمارة جميع المساجد في كل البلاد والقرى التي حررها.

وأهم ما يلاحظه المرء، وهو يقرأ تفاصيل معركة حطين وفتح القدس، أن الجيش الصليبي الذي اجتمع في صفورية كان أكبر جيش يجتمع للفرنجة.

أما المسألة المهمة التي تستوقفنا، هي أن الفرنج لما اجتمعوا في صفوريّة جمع صلاح الدين أمراءه، واستشارهم فأشار أكثرهم بترك اللقاء بالإفرنج، وأن يضعف الإفرنج بشنّ الغارات، وإخراب الولايات، لكن صلاح الدين عارض أكثر مستشاريه، وقال حسب ما ورد في الكامل لابن الأثير: «الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد والجهاد»؛ ففي ظلّ التفوق العددي والتسليحي للصليبيين الفرنجة كان صلاح الدين سيهزم، ومن ناحية أخرى كان اختيار الانسحاب معناه التخلي عن خطة الجهاد لاسترداد

القدس وفلسطين، والواقع أن الجيش الذي جمعه صلاح الدين لم يكن كافيًا لتأمين نصر أكيد في معركة كهذه، لكن الملفت للنظر أن صلاح الدين عندما شرح بحصار القدس تقاطر على معسكره حشد من علماء الشام جاؤوا متطوعين للجهاد، ولنيل شرف تحرير بيت المقدس بعد تسعة عقود على احتلالها.

ومن غرائب ما ورد من أخبار «أن بعض المنجمين قال لصلاح الدين إنك تدخل بيت المقدس، وتذهب عين واحدة منك فقال رضيت أن أعمى وآخذ القدس».

وفي منظورنا الإسلامي، لم تكن القضية مرتبطة بالعدد والعدة بقدر ما هي مرتبطة بتأييد الله سبحانه للمجاهدين، وبنفوس مقبلة على الجهاد والاستشهاد؛ لأجل بيت المقدس ومكانته لدى المسلمين.

لقد كان الحدث - تحرير بيت المقدس- من أعظم أحداث تاريخ الإسلام والمسلمين، وشكل يوم السابع والعشرين من رجب علامة فارقة في تاريخ القدس؛ فهي منذ البدء كانت اختيار الله سبحانه لإسراء رسوله ﷺ، وكانت زمن صلاح الدين موعد تحرير القدس من نير الصليبيين الفرنجة، الذي دام احتلالهم نحو تسعين عامًا.

لقد كان تحرير القدس على يد صلاح الدين - وما يزال- الحافز الكبير لمواصلة المسلمين والعرب جهادهم لتحريرها من نير الصهاينة الذين يحاولون اليوم أن يقلبوا المسجد الأقصى، أو ينسفوه ليصار مكانه هيكلهم المزعوم، تمامًا مثل ما حاول الصليبيون أن يقلبوه إلى حظيرة خنازير، أو كنيسة صغيرة، حسب ما ذكرت مصادرهم، ولكن عزّة الإسلام وجهاد المسلمين متواصلان حتى يحرر الأقصى من جديد.

التفريط بالقدس ونهاية المفرّطين بها:

لعل من أحلك الفترات سوادًا على مدينة القدس، وعلى العرب والمسلمين، ما آلت إليه الأحوال بعد موت صلاح الدين الأيوبي، وانقسام مملكته المترامية الأطراف إلى ممالك صغيرة، استأثر بها أولاده وأخوه العادل وأولاده؛ فبدل أن يستجمعوا القوى لطرد الصليبيين نهائيًا من الأرض العربية، فتتوا هذه القوى بالتناحر والتقاتل من أجل ضمّ الأراضي إلى ممالكهم وإقطاعياتهم. وأدى ذلك في مراحل عدة للاستعانة بالصليبيين ضدّ إخوتهم وأبناء عمومتهم.

وحسب ما أشارت إليه المصادر العربية التاريخية، فإن المسلمين عادوا مع صلاح الدين، وعمروا القدس بأبناء العروبة والإسلام، وطردوا الصليبيين منها طردًا كاملًا.

في البداية نشب نزاع بين ولدي صلاح الدين، الأفضل علي والعزيز عثمان حول القدس، وقد كانت القدس تابعة للأفضل علي، وقد أهملت المدينة في هذا الوقت، ثمّ تسلط عليها العزيز عثمان، وأرسل إليها الأموال والغلال، كما بعث بقوة عسكرية تقف إلى جانب والي القدس، وكان اسمه عز الدين جديك، ومع تصاعد نفوذ عثمان تخلى الأفضل له عن هذه المدينة، وذلك في سبيل التخلص من نفقات حمايتها.

لكن الوزراء والولاة والقادة الذين استقروا في القدس، خافوا على نفوذهم، فانقلبوا ضدّ العزيز عثمان. ونشبت المعارك بين جيوش الأخوين، ولم يلبث أن مات كلاهما، فأصبحت مصر بيد الملك العادل، ثم استولى على دمشق، وبدأ زحف الحملة الصليبية الرابعة، فاضطر العادل إلى التراجع أمام الصليبيين، ومن ثمّ الهرب إلى دمشق، لكنّ منيته وافته في الطريق، وقد خلفه ابنه المعظم عيسى على دمشق، وقد ارتأى أن يدمر أسوار القدس، وقام بالتهديم فدمرت أسوار القدس ودفاعاتها، وجاء هذا التهديم على عدة مراحل بدءًا من سنة 616 ه.

في هذا الوقت كان الصليبيون قد احتلوا دمياط، فعرض الكامل عليهم تسليمهم كل المناطق التي حررها أبوه صلاح الدين، بما فيها مدينة القدس مقابل أن ينسحبوا من

دمياط، فرفض الصليبيون طلبه، ولما سمع القادة المسلمون عرضه اجتمعوا وقرروا خلعه، ولما سمع الكامل بذلك تراجع عن عرضه، وطيّب خاطر القادة.

ولتخفيف الضغط الصليبي عن مصر قام الملك المعظم في دمشق بمساعدة أخيه الكامل، فراح يهاجم ممتلكات الصليبيين في فلسطين، وتهديم الأسوار العملاقة في القدس، وقد تحولت أسوار القدس وأبراجها إلى أكوام من الحجارة باستثناء المسجد الأقصى. وبسبب هذا التخريب وقعت في القدس ضجة كبيرة، فخرجت النساء المخدرات والبنات والشيوخ والعجائز والشباب والصبيان إلى المسجد الأقصى والصخرة، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم. وبسبب هذا التهديم هرب الآلاف من المدينة؛ خوفًا من الصليبيين الذين كانوا يتربصون مدينة القدس، وكانت ذكرى مذبحة القدس الأولى لا تفارق الناس.

وفي الجانب الآخر -في ألمانيا تحديدًا- كان الملك فريدريك يجهز لحملة صليبية جديدة، وكانت القدس تحت قيادة المعظم عيسى، ولكي يؤكد عيسى اهتمامه بالقدس، فقد زارها مع لفيف من العلماء، وقد قدم رسول الملك فريدريك؛ ليتباحث مع عيسى حول القدس، فأغلظ عيسى على فريدريك، وقال لرسوله: "قل لصاحبك، ما أنا مثل غيري ما له عندي سوى السيف".

لكن الملك عيسى توفي بعد فترة وجيزة، وخلا الجو لأخيه الملك الكامل، حيث وقع مع فريدريك هدنة مدة عشر سنوات نصت على تسليم القدس لفريدريك، إضافة لجميع القرى الموجودة على الطريق من يافا إلى القدس.

بعد توقيع الاتفاق طلب الكامل من أهل القدس مغادرتها وتسليمها للصليبيين، ولم يستمع لأصوات المعارضة. وحينها وقع في القدس الضجيج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم، وأنكروا على الملك الكامل فعلته، واستشنعوه منه، ووقف أهل دمشق ضدّ هذا الفعل. ودخل فريدريك القدس، ونصب نفسه ملكًا عليها في كنيسة القيامة، ثمّ عاد إلى عكا بعد يومين.

وكان في هذه الأثناء ملك فرنسا يُعدّ العُدة لحملة صليبية جديدة، مما أثار حمية الناصر داود بن عيسى، صاحب الكرك، فتحرك فجأة نحو القدس، وأعاد تحريرها بعد أن اجتاح دفاعاتها، وفرض على الصليبيين مغادرة المدينة وتسليمه قلعتها.

وتجمعت قوات الصليبيين في عكا مرة أخرى، وكان قصدها مدينة دمشق، وقد أُهملت مدينة القدس مرة أخرى.

لكن المأساة الأخرى التي وقعت للقدس أن الملك الصالح أيوب اتفق مع الصليبيين على هدنة كان من بنودها تسليم القدس وعدد من المناطق للصليبيين، مثل قلعة الشقيف وصفد وجبل الطور واللجون وبيت لحم، وكان هذا إضاعة كل ما حققه صلاح الدين في حروبه مع الفرنجة.

وقد استقر الإفرنج في القدس بعض الوقت، لكن الملك الصالح أيوب تنبه لما فعله، فحشد جنوده من المماليك والخوارزمية وحرضهم على استعادة القدس... فقاموا بمهاجمة القدس، وقتل عدد كبير من الصليبيين، وقد تمّ طردهم منها سنة 1244م، واستولى عليها جنود الملك الصالح، بينما كان الزحف المغولي يتقدم من شمال سورية، ومن فرنسا تأتي حملة صليبية جديدة بقيادة لويس التاسع، كان الهدف منها احتلال مصر.

وبسبب من ضغط الحملة الصليبية السابعة على الملك الصالح، قام بعرض هدنة على لويس التاسع تتضمن منحه القدس.

والواقع أن الخوارزمية بعد فتحهم للقدس نشب خلاف بينهم وبين الملك الصالح أيوب، فهجروه وعملوا لمصلحة غيره، لكن القدس بقيت بأيدي المسلمين، وأخذوا يعودون إليها للاستقرار، وتطور هذا الاستقرار وأعطى ثماره في العصر المملوكي، ولم تُحتل القدس مرة أخرى من قبل الصليبيين.

ويموت الملك الصالح، وتحدث معركة المنصورة، فينتصر المسلمون ويؤسر لويس التاسع، وتبدأ مرحلة جديدة في مصر، حيث ينتهي الحكم الأيوبي، فيتسلم المماليك الحكم، ليواجهوا التتار والصليبيين معًا في المرحلة الآتية.

من خلال ما تقدم، ندرك أن القدس عاشت في غربة خلال فترة حكم الصليبيين واحتلالهم لها، لكنها عندما حُررت أخيرًا من الصليبيين، بدأت تشهد الاستقرار والأهمية السياسية إلى جانب أهميتها الدينية.

لقد جاء تحريرها الأخير دافعًا لقيام لويس التاسع بحملته الصليبيّة على مصر، وعلى الرغم من إطلاق سراحه ومكوثه في عكا فترة طويلة إلا أنه لم يفكر أن يهاجم القدس أو يحتلها.

ويهاجم المغول بلاد الشام فيحتلون المدن مدينة إثر أخرى، وقد زحفت جيوشهم المتجمعة في منطقة البقاع باتجاه فلسطين، وهناك في عين جالوت جرت المعركة الفاصلة بين التتار والمسلمين، حيث انكسر المغول ورُدوا على أعقابهم، وسَلِمت مدينة القدس من الغزو.

وبدأت معالم مرحلة جديدة تبرز في ظلّ حكم المماليك، وقد قام سلاطين المماليك الأوائل بتصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام. وحُررت عكا سنة 1291م، وبذلك انقضت مرحلة الحروب الصليبية.

ومما لا شك فيه أن تسليم القدس من قبل ملوك الأيوبيين بعد صلاح الدين يُعدّ وصمة عار في تلك المرحلة، لكن الله سبحانه منَّ على هذه المدينة المباركة بأن جعل سكانها يرابطون فيها، ويدافعون عنها، حتى تُعاد مرة أخرى إلى وجهها الإسلامي المشرق، وهذا هو قدر أهلها، كما حدّث عنهم رسول الله ﷺ؛ فهي أرض رباط، وأهلها مرابطون مجاهدون إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

حتى المماليك لم يفرطوا بالقدس:

بعد أن استطاع صلاح الدين الأيوبي تحرير بيت المقدس بدأت معالم السكان بالعودة إلى سابق عهدها قبل الاحتلال الصليبي، لكن بعض المستشرقين وبعض الباحثين المرتبطين بالتوجه اليهودي، حاولوا أن يدسوا العنصر اليهودي في ذلك الوقت، بحيث يُظهِرون دورًا ما لليهود في تحرير القدس، ومن دور آخر في السكن في المدينة، على اعتبار أنها جزء من بلادهم -كما يزعمون- وللحقيقة نرى أن العودة للمصادر التي كتبت مرافقة لجهاد صلاح الدين ومن بعده، تؤكد لنا كثيرًا من الحقائق التي تدحض تلك المزاعم.

غادر القدس المسيحيون اللاتين الذين ارتبطوا بالوجود الصليبي، وتدفق عليها المسلمون، وراح المسيحيون العرب يسكنونها، إضافة لبعض ممثلي الطوائف المسيحية، من أرمن وأحباش وإغريق.

وقد حظي المسيحيون برعاية السلطات المملوكية، وتمتعوا بالإعفاءات من الضرائب، ومارسوا طقوسهم بحرية تامة، وقد بلغ تعداد المسيحيين أحيانًا ما يزيد عن 10 % من عدد سكان القدس. والواقع أن عددًا قليلًا جد من اليهود العرب سكنوا القدس لم يزيدوا على بضع أُسر قليلة العدد، وتمتع هؤلاء بحرية دينية.

وغالبًا ما نشأت خلافات بينهم وبين المسيحيين حول بعض الأماكن المقدسة وملكيتها، ويذكر صاحب كتاب "الأنس الجليل" المؤرخ العليمي أن المماليك وقفوا على الحياد حيال هذه الخلافات، وكان الحلّ في هذه المشاكل يعود إلى القضاء الإسلامي النزيه.

على أيّ حال، فإن الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي زار المنطقة في القرن الثاني عشر الميلادي، وقدم إحصائية لعدد اليهود في كل مكان زاره، ووصف أحوالهم، فوجد في بيت جبرين ثلاثة من اليهود، وفي بيت لحم أحد عشر، وفي الرملة ثلاثة، وفي يافا وجد واحدًا، وفي كل من قيسارية وعكا مئتين، وفي طبريا خمسين، وفي اللد وجد يهوديًا واحدًا، ولم يجد في القدس وحيفا ونابلس وقاقون وسبسطية وكفر ناحوم وبقية المناطق أحدًا من اليهود.

وقد وجد في دمشق ثلاثة آلاف يهودي، أما القلائل الذين ذهبوا إلى القدس، بعد تحريرها على يد صلاح الدين، فقد اشتغلوا في الدباغة والصياغة وجمع الثروات.

وفي سنة 1473، أي في زمن المماليك، تمكن اليهود من بناء كنيس صغير لهم، ودار خلاف شديد حول بناء هذا الكنيس بينهم وبين المسلمين، وقد تثبت القضاء آنذاك أن هذا الكنيس غير شرعي فألغي.

ويذكر القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى" أنه كان من المفترض أن يكون لليهود رئيس خاص بهم في فلسطين، يرعى شؤون أفرادهم الدينية، ويمثلهم لدى سلطة المماليك، ونظرًا لوجود أكبر تجمع لهم في دمشق فقد كان هذا الرئيس يقيم فيها.

بينما كان اليهود السامريون يسكنون قرب نابلس، ولهم رئيس طائفة، وينفصلون عن بقية اليهود في بلاد الشام، من حيث انتماؤهم وعاداتهم وتشريعاتهم، وقد حافظوا على عددهم القليل دون دخول أي يهودي غريب بينهم.

والأمر الملفت للنظر أيضًا أن بطريركية عربية أرثوذكسية أقيمت في القدس، وتقلصت جدًا مرجعية المسيحية اللاتينية؛ ففي أواخر العصر المملوكي كثر عدد سكان القدس، وانتشرت فيها الأحياء، وقد عرفت كل حارة باسم الطائفة التي كانت تسكنها، وقد بلغ تعداد كل حارة نحو 500 شخص، وقد كان للمسيحيين أحياء خاصة، ووجدت بعض بيوت اليهود منتشرة فيما بين مجموع السكان، ولم يكن لهم حارات بسبب ندرة أعدادهم.

ويقول المؤرخ لابيدوس في كتابه "مدن الشام في العصر المملوكي": "لم توجد المجتمعات المشابهة لأحياء اليهود المعروفة بالغيتو أبدًا في مدينة القدس". ومما ذكره المقريزي والقزويني وغيرهما أن القدس حظيت بالعصر المملوكي بمكانة سامية، وعاشت أروع عصورها في تاريخ الإسلام؛ فقد حظيت بالقداسة لدى المسلمين والنصارى وغيرهم، وتوفرت فيها أجواء الحرية الدينية، وكان الزوار يؤمونها بشكل دائم.

ومما يذكر أن سلاطين المماليك اختاروا القدس مكانًا للإقامة الجبرية للأمراء المبعدين لأخطاء، مالم تشكل خطرًا على الدولة. ويرى بعض المؤرخين أن الذي كان ينفى إلى القدس من قبل سلاطين المماليك، إنما هو يكافأ بسبب مناخ القدس الجيد، وتوفر كل شيء فيها من حرية دينية وموارد وثقافة ومدارس لم تتوفر في أي مدينة أخرى من الشام.

بعد انكسار المماليك في مرج دابق أمام العثمانيين زحف السلطان سليم الأول نحو بلاد الشام ووصل إلى القدس، وقد استقبله أهلها بترحاب كبير؛ إذ كانوا قد عانوا كثيرًا من الظلم على أيدي ولاة المماليك في آخر عصورهم.

والواقع أن عصر ابنه سليمان القانوني يُعدّ أزهى عصور الدولة العثمانية، وكان حكمه مهمًا بالنسبة لمدينة القدس. وبسبب صراعات العثمانيين مع الدول الأوروبية ثارت رياح المشاعر الصليبية من جديد، وخشي الناس من تعرض القدس لحملة صليبية، وكانت أسوار المدينة ضعيفة جدًا، لذلك أمر السلطان سليمان إعادة إعمار أسوار القدس، وقد أشيع وقتها أن السلطان شاهد في منامه النبي ﷺ، وأنه هو الذي أمره بتجديد دفاعات القدس.

وبالفعل بنت السلطات العثمانية سورًا طوله نحو الميلين، وارتفاعه أكثر من عشرة أمتار، وكان في السور أربعة وثلاثون برجًا. وأحاط السور بالمدينة، وجُعل فيه سبعة أبواب، أهمها باب دمشق، الذي يقال بأن المعماري العثماني المشهور سنان باشا هو الذي صممه. وجاء الفراغ من هذه الأعمال سنة 1541م.

وأنفق السلطان سليمان الأموال على تأمين المياه للقدس، فتمّ تجديد بحيرة السلطان جنوب غربي القدس، وأُصلحت قنوات جرّ المياه، وبُنيت ست نوافير في ساحة الحرم.

وتذكر بعض المصادر أن السلطان سليمان سهّل دخول بعض يهود الأندلس إلى القدس، لكن التحليل التاريخي يرى أن استقطاب هؤلاء اليهود في الدولة العثمانية جاء بعد محاكم التفتيش في إسبانيا. فقد أبدى الإسبان خشية بالغة ضدّ المسلمين وأكثرية يهود الأندلس، بينما ارتأى السلطان سليمان أن رحمة الإسلام تستقطب الناس أجمعين.

وقد كانت الدولة العثمانية قوية جدًا، مستبعدة خطر اليهود أو غيرهم على مدينة القدس.

وللحقيقة، فإن قوة الدولة، وتساهل الإسلام ورحمته، مكنت لبعض اليهود أن يجدوا لهم ملجأ في القدس؛ خوفًا من بطش المسيحية الغربية ضدّهم، وخاصة في إسبانيا وروسيا.

والواقع أن السلطان سليمان اهتم كثيرًا بالحرم القدسي، حيث شمل الترميم بعض أجزاء قبة الصخرة، مع تغليف بعض الأجزاء الأخرى بالرخام، ولاقت أوقاف الحرم القدسي مع بعض المدارس مزيدًا من العناية.

كما تنازل السلطان عن حقه في الرسوم التي تُجبى من الحُجاج، وذلك لصالح الإنفاق على تلاوة القرآن في قبة الصخرة مدة سنة، وتحسن مدخول الأوقاف، وبالتالي ازداد الإنفاق.

وقد ورد في رحلة اليهودي بنيامين التطيلي، وكذلك في كتاب القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث لكارين ارمسترونغ، أن نفوذ اليهود في القدس بلغ درجة عالية في عهد السلطان سليمان، لكن التأريخ لهذه المرحلة من قبل اليهود لا يتوافق مع حقيقة أن الدولة العثمانية القوية لم تفكر يومًا في أن يكون لليهود موطئ قدم للانقضاض على المسلمين ومدينتهم.

لكن بعض اليهود اختلسوا التسامح العثماني، وراحوا يتسللون إلى القدس فرادى، حتى وصل عددهم في القرن الثامن عشر إلى بضعة آلاف، وكانت المسألة الشرقية قد برزت معها ضعف الدولة العثمانية.

القدس في قلب المسألة الشرقية:

عندما بدأ يدب الضعف في الدولة العثمانية، أخذت القوى الاستعمارية الأوروبية تتكالب عليها، وعلى الأراضي التابعة لها في منطقة البلقان والشمال الإفريقي وبلاد الشام ومصر. ولما كانت مدينة القدس مدينة دينية ولها مكانتها في جميع المناطق، ولها رمزيتها بالنسبة للمسلمين والمسيحيين، فقد ركزت الدول الغربية جميعها على فلسطين سياسيًا ودينيًا وآثاريًا، وحظيت مدينة القدس بالحظ الأوفر من الاهتمام، فلعل هذا الاهتمام يجر إلى

حروب صليبية جديدة تشنها القوى الغربية بوسائل عدة؛ لتعيد أمجاد الحملات الصليبية الأولى على الشرق وفلسطين بوجه خاص.

بدأ هذا التغلغل منذ وقت مبكر في بداية القرن السابع عشر، عندما استطاعت فرنسا أن توقع اتفاقية تجارية مع العثمانيين، وقد تمّ بموجبها إرسال أول قنصل فرنسي إلى القدس، كانت مهمته الدينية حماية حقوق رهبان طائفة الفرنسيسكان، ومن يسمون بالحجاج الغربيين.

وقد أخذت الإدارة العثمانية تتدهور، مما أتاح الفرصة لتدخل القنصل الفرنسي في شؤون مدينة القدس، حاول الباشوات مقاومته فأخفقوا، وعندما رأى الأرثوذكس اهتمام الفرنسيين بشؤون الكاثوليك تحركوا، وصار التنافس على مظاهر الاحتفالات يأخذ منحى سياسيًا، تتدخل فيه كل من روسيا الأرثوذكسية، وكذلك بريطانيا والنمسا وغيرهما من البلدان.

وبالعودة إلى الوثائق التاريخية نجد أن حملة نابليون بونابرت على فلسطين فتحت الأعين الغربية من جديد على فلسطين والقدس خاصة الإنجليز. في سنة 1801م وصل فلسطين الرحالة الإنجليزي إدوارد دانيال كلارك، وقد زار أكثر معالمها الدينية، وكتب عن مشاهداته كثيرًا من التقارير لحكومته، مما دفع الإنجليز لتشكيل جمعية اكتشاف الأرض المقدسة سنة 1804م، وبدا أن هذه الحركة قد مهدت الطريق لمزيد من النفوذ والتغلغل في فلسطين.

والغريب في ذلك الوقت أن الولايات المتحدة شكلت عدة جمعيات بروتستانتية للذهاب إلى فلسطين، وكانت جميعها تعمل في اتجاه خدمة ما جاء في توراة اليهود المحرفة، ليصلوا إلى مقولة إن اليهود أحقّ بهذه الأرض؛ لأنها أرض توراتهم ودولتهم القديمة حسب زعمهم.

ومنذ سنة 1849م ازداد رجال اللاهوت والرحالة الذين قدموا إلى القدس من أمريكا وإنكلترا وألمانيا. والواقع أن الحروب التي حدثت في البلقان، وخسارة الدولة العثمانية لمعظم المناطق التي كانت مسيطرة عليها، ومشاكل لبنان خلال الفترة الممتدة ما بين سنتي 1840 و

1860، فتّح الأعين الغربية أكثر فأكثر على فلسطين. وعن طريق استغلال هذه الظروف انتهك رجال اللاهوت الغربيون حرمة المواقع الأثرية في القدس وفلسطين، وراحت الحفريات العبثية تخرب الآثار بدل المحافظة عليها ودراستها.

وكما ذكرنا كان هدف هذه الحملات الحفرية البرهنة على صحة خرافات العهد القديم وأساطيرها في القدس، وحاول الفلسطينيون مرارًا إيقاف الآثاريين الغربيين عند حدودهم... وعلى سبيل المثال حاول سكان القدس إيقاف الآثاري دوسولسي عن الحفر في موقع عرف باسم مقبرة السلاطين في القدس، ولكن السلطات العثمانية آنذاك سمحت له بالحفر، وادعى أنه وجد قبر الملك اليهودي صدقيا، والمثير للدهشة أن اليهود في القدس اعترضوا على ما قام به هذا الباحث؛ لأنه دنّس حرمة الأضرحة.

في سنة 1864م وصلت أكبر بعثة إنجليزية إلى فلسطين ومعها المهندسون وآلات الحفر، وراحوا يعيثون فسادًا في آثار المدينة المقدسة. ثمّ تشكل صندوق اكتشاف فلسطين، وقد جرى احتفال بهذه المناسبة في القدس، وحضره أسقف لندن ورئيس أساقفة نيويورك المدعو طومسون، ومما قاله هذا القس: "إن هذا البلد فلسطين عائد لكم ولي، إنه لنا أساسًا. فقد مُنحت فلسطين إلى بني إسرائيل بالعبارات التالية: هيا امش في الأرض طولًا وعرضًا لأنني سأعطيك إياها. ونحن عازمون على المشي عبر فلسطين بالطول والعرض لأن تلك الأرض منحت لنا".

وهذا الكلام قيل على لسانه سنة 1865م، مما يؤكد التوجه الأمريكي الاستعماري البروتستانتي، ومساعدة يهود العالم على احتلال فلسطين.

وفي هذه الأثناء كانت العلاقات العثمانية الألمانية قد تطورت كثيرًا، ودخل الألمان ميادين الكشف الأثري. وفي سنة 1898 قدم إلى زيارة القدس الإمبراطور الألماني غليوم الثاني، ودخل المدينة في موكب نصر، ممتطيًا حصانًا أبيضًا، ولابسًا أردية مقاتل صليبي، وتحيط به حاشية كبيرة جدًا. وفي القدس نُصب للإمبراطور وزوجته مخيم فخم جدًا، وزار الوفد الألماني لمدة يومين جميع معالم المدينة، بما في ذلك قبة الصخرة.

إن دخول غليوم الثاني القدس بهذا الشكل، وبهذه الرموز، يذكرنا بأواخر الحروب الصليبية، عندما اتفق أحد سلاطين الأيوبيين مع ملك الفرنج على تسليمه القدس والتنازل عنها، مما أثار حفيظة العرب والمسلمين، ويبدو أن الغرب بشكل إجمالي ظلّ -وسيظل- يحمل في وجدانه وشعوره التوجه الصليبي، وخاصة في ما يتعلق بالقدس وفلسطين.

وقد أغاظت زيارة الملك الألماني للقدس الإنجليز، مما جعلهم يضغطون على الدولة العثمانية، مما سهل لهم زيادة البعثات الأثرية والتمثيل القنصلي السياسي في القدس، وكان من ذلك وصول بعثة إنجليزية سنة 1909 بقيادة مونتاغيو باركر، وقد قام باركر بعدة تجاوزات كان أخطرها دخوله سرًا في ليلة 1911/4/17 إلى قبة الصخرة، وأخذوا ينقبون ويعملون لفتح سرداب رأسي؛ لأنهم اعتقدوا بوجود كنز كبير هناك.

وقد كشف سر الحفر واحد من العاملين في الحرم القدسي. وانطلق يصرخ في ظلام الليل في المدينة ويستنفر الناس، فخاف باركر وصحبه ولاذوا بالفرار وغادر بعد ذلك إلى يافا.

وقد أسهم تدخل الدول الاستعمارية الكبرى في شؤون الدولة العثمانية أيام ضعفها، وخاصة في القرن الثامن عشر، بتسهيل التسرب اليهودي الغربي إلى القدس. ولم يعد الوجود اليهودي مقتصرًا على بعض يهود إسبانيا وبعض الشرقيين.

والواقع أن أوضاع اليهود الشرقيين في القدس تدهورت مع تدهور الدولة العثمانية، ومع ذلك امتلكوا أربعة معابد، ومع نهاية القرن الثامن عشر باتت أكثر البيوت في حي اليهود مهجورة. والمعابد متداعية، ويلحق ذلك التدهور كل فلسطين بمن فيها من المسلمين ومسيحيين، وهؤلاء اليهود القلائل الذين تسربوا إلى القدس. وقد أثار تدخل الدول الكبرى في الشؤون الداخلية العثمانية المشاكل والنزاعات بين سكان القدس، وكانت العلاقات ما بين المسيحيين واليهود سيئة جدًا.

وفي مطلع القرن التاسع عشر عاد اليهود الأشكناز إلى القدس، وكانت العلاقات بينهم وبين اليهود الشرقيين سيئة ومتوترة دومًا، وقد عانت مدينة القدس من الأجواء المسمومة المتفجرة، وقد استفاد من هذا كله اليهود حيث ازدادت أعدادهم كثيرًا.

على أيّ حال فإن التدخل الغربي في شؤون الدولة العثمانية، وما تبعه من تحركات مشبوهة للآثاريين، دفع الإنجليز خاصة للتفكير القديم الحديث بالتغلغل في فلسطين؛ تمهيدًا لاحتلالها، وتنفيذ مشاريعهم الاستعمارية فيها.

لقد اتسعت أطر الحفريات، فشملت عدة مواقع من فلسطين، وكذلك سيناء والنقب. وتطورت أحداث المنطقة، فكانت الحرب العالمية الأولى، وما عرف بالثورة العربية الكبرى، ودخول الجنرال اللنبي إلى القدس، الذي عدّ دخوله حملة صليبية جديدة، أرّخ لها أحد الكتاب الإنجليز.

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى وُضِعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وتفرغ هذا الاستعمار لنجاح المشروع الصهيوني حسب وعد بلفور[1]. واستمرت الحفريات الأثرية، وحدث اكتشاف مخطوطات البحر الميت[2]، واكتشافات أخرى كثيرة.

لقد جيّرت الدول الأوروبية الاستعمارية منذ بدأ الضعف يدب في أوصال الخلافة العثمانية لصالح مشروعين متفقين بالوسائل والأهداف، مشروع إعادة الحروب الصليبية، ومشروع إقامة كيان صهيوني يهودي على أرض فلسطين، وقد لعب البروتستانت الدور الأهم في إنجاز المشروع الثاني، وهو إقامة كيان صهيوني، وطرد الشعب الفلسطيني من أرضه.

1 وعد بلفور: هو الاسم الشائع المطلق على الرسالة التي أرسلها وزير الخارجية البريطاني آرثر جيمس بلفور في 1917/11/2، يُشير فيها إلى تأييد الحكومة البريطانية إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.
2 مخطوطات البحر الميت: مخطوطات لطائفة يهودية، تعود لما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول منه، تضم ما يزيد على 850 قطعة مخطوطة، بعض هذه المخطوطات من كتب لم تكن تعرف، أو كانت مفقودة.

القدس ونهاية الدولة العثمانية:

من المعروف لدى الدارسين والمؤرخين المتخصصين بالدولة العثمانية أن الإمبراطورية المسلمة تعرضت لحروب استعمارية متتالية من قبل بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية، فسقطت الجزائر تحت نير الاستعمار الفرنسي سنة 1830م، وكذلك سقطت عدن تحت نير الاستعمار البريطاني سنة 1839م.

وبدأ الضعف يدب في أوصال الدولة العثمانية بسبب الضغوطات الخارجية وقلة الموارد المالية، وما إن حلّ السلطان عبد الحميد الثاني خليفة للدولة حتى بدأت الدوائر الاستعمارية والصهيونية تنشط باتجاه إقناع الخليفة بالتنازل عن فلسطين مقابل 20 مليون جنيه؛ لسدّ العجز في الميزانية العامة للدولة العثمانية. وقد اشتُهر في الأوساط أن السلطان عبد الحميد رفض العروض المغرية للتنازل عن فلسطين، إلا أن الأضواء لم تُسلط بما فيه الكفاية على أواخر عصره، وصراعه مع الاتحاديين الأتراك، الذين كانوا يخططون في الخفاء ضدّ السلطان عبد الحميد؛ لإقصائه عن الحكم، وتنفيذ مآرب الطورانية التركية التعصبية.

دعا السلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية في وجه دعاة القومية التركية، التي طالبت الأرمن بتعديل مواقفهم؛ بغية إقامة تحالف معهم للإطاحة بعبد الحميد الثاني.

وفي حين كان الاتحاديون يدافعون عن قومية متعصبة كان السلطان عبد الحميد يدافع عن الإسلام، والتخلف عن الركب الإسلامي يُعدّ خروجًا عن الإسلام.

وهذا ما ينعكس فيما بعد على العلاقة السيئة بين السلطان عبد الحميد والحركة الصهيونية، التي لاقت أصداءها ورضاها عند الاتحاديين.

وقد أكدت الوثائق التركية والعربية، وكذلك الوثائق الصهيونية، أن العثمانيين رفضوا فكرة الوطن القومي لليهود في فلسطين، كما رفضوا الهجرة اليهودية إليها.

وانطلاقًا من الوثائق العلنية فإن المفاوضات بين السلطان عبد الحميد وثيودور هيرتزل، زعيم الحركة الصهيونية سنة 1896م قد فشلت تمامًا. وقد نقل نيولنسكي، وهو صديق للسلطان عبد الحميد وهيرتزل في الوقت نفسه، نصّ جواب السلطان عبد الحميد التالي:

> إذا كان هيرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي، فانصحه أن لا يتابع أبدًا هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدمًا واحدة من البلاد؛ لأنها ليست لي بل لشعبي. لقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمه وغذاها فيما بعد بدمه أيضًا. وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منها. لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سورية وفلسطين، وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر؛ لأن أحدًا لم يقبل التسليم، وفضلوا أن يموتوا في ساحة القتال. الإمبراطورية التركية ليست لي وإنما لشعبي. لا أستطيع أبدًا أن أعطي أحدًا أي جزء منها.

وقد أصدر السلطان عبد الحميد قانونًا يمنع الإسرائيليين من الإقامة الدائمة في فلسطين سنة 1900م، ويقول هذا القانون:

> كنا قد شددنا على منع دخول الإسرائيليين إلى أرض فلسطين، الموظفون تراخوا في تطبيق الأمر وأساؤوا تأويله، والإسرائيليون يأتون بحجة الزيارة ويستوطنون، كما أشعرنا متصرف القدس أن مكوثهم لا يجوز بأي حال من الأحوال. إن مأموري الدولة مسؤولون بشدة، وفوق العادة عن تنفيذ الأمر بدقة وحتى اليهود من أتباع الدولة العلية لا يجوز لهم الإقامة بصفة دائمة في فلسطين. إن هذه الأوامر لا تمانع زيارة اليهود للأراضي المقدسة منفردين أو جماعات، ولكنها لا تسمح بإقامتهم الدائمة، ويجب أخذ تعهد من القنصليات التي جاؤوا عن طريقها، وقد اتُخذ هذا الأمر بقرار من مجلس شورى الدولة ومجلس الوزراء، وصدرت فيه إرادة سَنِية من الخليفة.

وعلى الرغم من ذلك فقد راح الاتحاديون الأتراك يعملون في الخفاء على تسهيل تسريب اليهود إلى فلسطين، مقابل دعمهم لإسقاط عبد الحميد الثاني عن عرش الخلافة. وتمّ للاتحاديين إسقاط عبد الحميد الثاني، وجيء بخليفة ضعيف من بعده، وصارت اليد

الطولى لحزب الاتحاد والترقي، الذي يُشار إلى عدد كبير من أعضائه على أنهم من أصول يهودية ينتمون إلى يهود الدونمة.

وقد طرح الاتحاديون شعار "كل شيء من أجل القومية الطورانية»، وهذا يعني تخليهم عن الشعارات الإسلامية التي لا تغيب عنها فلسطين والقدس.

لقد كان شعار عبد الحميد "كل شيء من أجل الراية الإسلامية"، ولهذا كان موقفه السابق من القضية الفلسطينية موقف الحاكم المسلم الذي لن يسمح لنفسه بالتفريط بأي شبر من أرض فلسطين المباركة.

ويرى الدكتور محمود علي عامر أن السلطان عبد الحميد انفرد عن سلاطين بني عثمان بأنه كان يدعو إلى إحياء الدين، وقد تجسد في أذهان المسلمين أن عبد الحميد رجل مسلم، ورجل سلطنة تصدى بقوة إلى أعداء الدين من القوى الاستعمارية، ورفض بشدة مطالب اليهود وأعداء الإنسانية جمعاء، في السماح لهم بالتوطن في فلسطين العربية المسلمة، على الرغم من الأموال التي عرضوها عليه، وكان بأمس الحاجة لها، وقد بدا للمسلمين عامة، والعرب خاصة، أن عبد الحميد فضّل إنقاذ فلسطين آنذاك من براثن الطغمة الصهيونية على إمبراطورية عرشه.

ومع نشوب الحرب العالمية الأولى كان الاتحاديون قد سيطروا على الدولة العثمانية بشكل كامل، وأصبح السلاطين لعبًا بأيديهم، وقد أجبر السلطان رشاد على دخول الحرب مع ألمانيا ضدّ الإنجليز والفرنسيين.

حاول الشريف حسين، قائد الثورة العربية، أن يدعم موقف السلاطين العثمانيين في وجه الاتحاديين، لكنه فشل، ومع حملة التتريك القاسية التي شنها كبار حزب الاتحاد والترقي، لم يبقَ أمام العرب إلا الثورة على الأتراك.

وقد سبق أن قام جمال باشا بإعدام عدد كبير من رموز الدين والسياسة من العرب كالشيخ الزهراوي وعبد الغني العريسي وغيرهما.

وقد كانت فلسطين آنذاك ضحية واضحة لتخلي الاتحاديين عن الدفاع عنها، وتركها أمام جيوش الحلفاء من الإنجليز والفرنسيين، الذين ما إن بدأوا باحتلالها حتى سارعت الأوساط الصهيونية إلى فتح باب الهجرة اليهودية على مصراعيه.

وحتى عندما أصدر بلفور وعده لليهود بإقامة وطن قومي لهم على أرض فلسطين، لم يكن الاتحاديون ليحتجوا، أو حتى يخرجوا أي تصريح يناقض التوجه الاستعماري البريطاني. صحيح أن الدولة العثمانية في أواخر أيامها كانت تعاني من فقدان شبه كامل لسيادتها على أراضيها بفعل الامتيازات الأجنبية، وهو الأمر الذي جعل السلطان عبد الحميد الثاني يستصرخ الملأ في مذكراته بقوله: "منحنا لقيصر ألمانيا حقّ حماية الكاثوليك التابعين للكنيسة الألمانية في فلسطين، فبدأت فرنسا بالصراخ والعويل"... ولكن المشاريع الاستعمارية كانت أكبر مما يحتملها السلطان العثماني؛ فقد كانت بريطانيا تحاول جاهدة أن تجد لها مواقع أقدام في المنطقة، من خلال تسويغها وعملها في التبشير البروتستانتي وحماية اليهود. وقد برز مشروعها الخاص بتسكين اليهود الأوروبيين في فلسطين وبتدويل القدس.

لقد انتهت الدولة العثمانية واقتسمت أوروبا أراضيها. ووجهت الدول الاستعمارية أكبر طعنة قاتلة للخلافة الإسلامية، عندما زرعت في قلب الأمة الإسلامية ووحدة الوجود الإسلامي.

لقد ظلّت القدس عصية على الطامعين طوال أربعة قرون من سلطة العثمانيين، ولكن الضعف سُنّة الكون، والضعيف يصبح محل طمع كل الطامعين، ومحل مؤامرات الغرب الصليبي الذي أنهى الدولة العثمانية، وفتت الأمة الإسلامية إلى دويلات لا حول لها ولا قوة.

القدس والمؤامرة الغربية في سنة 1917:

إبان الحرب العالمية الأولى بدأ المخطط الاستعماري في صنع الكيان الصهيوني يأخذ منحى عالميًا نفذته قوات الحرب البريطانية، ضمن المخطط الاستعماري القاضي باحتلال الوطن العربي، وصنع كيان يهودي في فلسطين.

وقبيل زحف القوات البريطانية الاستعمارية لم يكن الدفاع عن القدس قد أخذ منحى جديًا كي يُصد الهجوم البريطاني؛ فقد أهملت الحامية التركية التحصينات للمدينة، وكان ينبغي أن يكون من الواضح أن ضياع القدس سيكون ضربة قاصمة بالنسبة للدولة العثمانية وكسبًا كبيرًا للحلفاء.

تنبه جمال باشا للمسألة متأخرًا، فأمر في 1917/11/5 بالإعداد للدفاع عن القدس، ولكن دفاعات القدس عند الهجوم عليها في كانون الأول/ ديسمبر 1917 لم تكن قادرة على الصمود بوجه الزحف البريطاني، وعلى الرغم من ذلك فقد كان اللواء العشرون التركي بقيادة علي فؤاد من أكثر الأولوية دفاعًا عن القدس، لكن القتال أنهك جيشه، وانهارت أكثر أجنحته، ولم تصمد دفاعات القدس أكثر من عشرين ساعة أمام شدة القصف المدفعي البريطاني.

وتذكر بعض الوثائق العسكرية البريطانية أن قيادة قواتهم اختارت الجنرال الموالي للحركة الصهيونية؛ ليكون قائدًا للجيش الذي يشنّ الهجوم على القدس.

وعندما شعرت الحامية التركية أنه ليس بالإمكان الدفاع عن المدينة، تخلت الحامية عنها، وأخلتها لتدخلها القوات الاستعمارية البريطانية.

كل ذلك معروف لدى المؤرخين الذين دونوا الوقائع آنذاك، ولكن الذي يلفت النظر في ذلك كله بعض الأمور التي يجب أن تتوضح لندرك مدى المؤامرة البريطانية على القدس وعروبة فلسطين.

فقبل الزحف على القدس، كانت العناصر المقاتلة المنضوية تحت إمرة الشريف حسين قد أعدت نفسها لتحرير القدس دون مساعدة من الإنجليز، وقد علمت القيادة البريطانية بذلك فاحتجت لدى الحسين، وطلبت منه تأجيل هذا الزحف حتى تأتي القوات البريطانية بعد أربع وعشرين ساعة، وفعلًا فقد أجل الزحف، ولم يدرك رجال الثورة العربية أن طلب تأجيل الزحف يعني فتح المجال للقوات البريطانية، التي تدعي النصر على الأتراك، ومن ثمّ تنفذ مشروعها الصهيوني كيفما يحلو لها.

وفي تمام الساعة العاشرة والنصف من يوم الأحد 1917/12/9، سلمت القدس، ودخلها الجنرال اللنبي، وعند سورها بالقرب من حائط البراق قال قولته المشهورة: "الآن انتهت الحروب الصليبية".

انسحب الأتراك كليًا من مدينة القدس، وبدخول القوات البريطانية الغازية خيم على المدينة جو من الترقب والتشاؤم، وكان هذا التشاؤم في محله؛ فقد دخل الإنجليز القدس عن طريق الشيخ بدر، وأول عمل قاموا به وضع نصب تذكاري من الرخام الأبيض؛ تخليدًا لغزوهم، وقد نقشوا عليه اسم الجنرال اللنبي والتاريخ الذي احتلت فيه المدينة، وأنشؤوا حول النصب حديقة، وأرادوا أن يرفعوا على النصب صليبًا، إلا أنهم عدلوا عن ذلك؛ استجابة لرغبة اليهود، وليس استجابة للعرب المسلمين، وقد وضعوا الصليب، ولكن بشكل موارب بحيث لا يراه الناظر من بعيد.

بعد أقل من ستة أسابيع على صدور وعد بلفور في 1917/11/2، دخل الجنرال اللنبي القدس، وأذاع على السكان بيانًا أعلن فيه الأحكام العرفية، وراح يفسح المجال أمام اليهود؛ للدخول إلى بعض المناطق التي كانت محرّمة عليهم، وأول ما طلبه اليهود من اللنبي والقيادة العسكرية البريطانية الإفصاح عن نيتهم في الاكتفاء الذاتي دون حاجة إلى اليد العاملة العربية.

وبدأ يشتد العداء العربي اليهودي، خاصة عندما رأى العرب انحياز البريطانيين الواضح لجانب اليهود.

سنت القوات البريطانية قانون البلديات الذي أدخل اليهود بأعداد تفوق العرب إلى مجلس بلدية القدس، وأصبح الأعضاء في سنة 1926 خمسة من المسلمين وثلاثة من النصارى وأربعة من اليهود.

وفي سنة 1934 صار عدد اليهود ستة والمسلمين أربعة واثنان من المسيحيين، وقد منح القانون المذكور المندوب السامي البريطاني حقّ تعيين اثنين إضافيين زيادة على الاثني عشر عضوًا، وكان يهدف إلى سيطرة اليهود بشكل كامل على المجلس البلدي.

وفي سنة 1944 عينت القوات البريطانية يهوديًا رئيسًا للمجلس البلدي في القدس، وكانت هذه أول مرة يعين فيها يهودي في هذا المنصب، وهذا ما دفع العرب إلى الصدام مع الإنجليز واليهود على السواء.

واستكمالًا لمشروع الوطن القومي لليهود على حساب الشعب الفلسطيني وأرضه فقد أقام الإنجليز الجامعة العبرية منذ سنة 1918، وقد افتتحها بلفور، صاحب الوعد المشؤوم، في الأول من نيسان/ أبريل 1925، وكانت أهم المواد التي تدرس فيها علم اللغات العبرية، التوراة، التلمود، آداب اللغة العبرية، الفلسفة اليهودية، التاريخ الإسرائيلي، وعلم الأسر الفلسطينية.

ومن الجدير ذكره، أن بلفور عندما حضر ليفتح هذه الجامعة أقفل العرب متاجرهم، ووضعوا على الأغلاق الأعلام السوداء، ولم يمكنوه من زيارة المسجد الأقصى.

ولما مرّ بدمشق في طريق عودته قامت المظاهرات ضدّه، وأقفلت الحوانيت والشوارع التي مرّ بها، وهرع جنود الفرنسيين لحمايته، وأخيرًا اضطر للفرار إلى بيروت، حيث نزل في أحد البواخر الراسية في مينائها، وأقام فيها مدة إلى أن أقلعت به إلى بريطانيا.

وفي السياق، لا بد أن نذكر أنه منذ سنة 1918، شكلت الحكومة البريطانية إدارة ذات صفة عسكرية، وفي نفس الوقت تشكلت إدارة يهودية بإيعاز من الإنجليز، وأرسلت إلى فلسطين؛ لأجل تنظيم التدابير التي من شأنها أن تنفذ سياسة بلفور في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

ومما يذكر أن قادة الاحتلال البريطاني أبلغوا مفتي القدس آنذاك أن اليهود يرغبون بشراء حائط البراق، فكان جوابه: "لا يستطيع أي إنسان أن يتصرف بأملاك الوقف، ولا سيما هذا المكان على وجه الخصوص، بأي مبلغ مهما كان حتى ولو إلى مسلم، فكيف إذا كان الطالب يهوديًا ؟! ونحن نعرف أهدافكم لامتلاك الحائط وما في جانبه".

تشكلت في القدس عدة جمعيات مناهضة للإنجليز والصهاينة مباشرة بعد الاحتلال البريطاني، وكان من بينها جمعية الفدائية، وهي جمعية سرية، وكان من زعمائها جودة الحلبي، الذي كشف النقاب عن استعداد أعضاء الجمعية للعمل المسلح ضدّ التحالف الإنجليزي الصهيوني، ومما تناوله نشاط هذه الجمعيات تسليح الأعضاء بالأسلحة الخفيفة، وبثّ الدعاية بين أبناء الشعب الفلسطيني ضدّ الخطر اليهودي.

ومن أسرار الملفات في سنة 1918، أن محمود عزيز الخالدي كان ينتمي لبعض الجمعيات السرية، وقد رسم الخطط لاغتيال بعض زعماء الصهاينة، وأخذ يحرض على الثورة ضدّ الإنجليز.

وبالمقابل، فإن الإنجليز راحوا ينفذون سرًا وعلانية مخططهم الرامي إلى إقامة وطن لليهود على حساب الشعب الفلسطيني، وقد ألحّ اليهود على وجوب مشاركتهم في الإدارة العسكرية، وطلبوا تشكيل لجنة للأراضي تشتمل على خبراء تعينهم الجمعية اليهودية؛ للتثبت من مرافق فلسطين الطبيعية، وطلبوا أن يعهد إليهم باختيار رجال البوليس من اليهود، وأن يدفعوا لهم الرواتب الإضافية فوق ما يتقاضونه من الإنجليز، وطلبوا أن تكون لهم قوة عسكرية للدفاع، بل شرعوا في تدريب القوة، وطالبوا بالاعتراف باللغة العبرية كلغة رسمية.

ومن الوثائق السرية وثيقة إنجليزية تقول إن حاخام اليهود الأكبر كوك ومجلس الربانيين اليهود في فلسطين ونائب رئيس الجمعية اليهودية طلبوا رسميًا من الحكومة البريطانية أن تسلمهم المسجد الأقصى جميعه، وقد ذكر ذلك آخر حاكم عسكري إنجليزي لفلسطين الجنرال بولز في سنة 1920.

القدس والتصدي للأخطار مابين 1918-1920:

بعد احتلال فلسطين من قبل الإنجليز في سنة 1917، استخدمت القيادة الإنجليزية عددًا من الصهاينة ليشكوا لجنة تعمل لتدبير الشؤون الخاصة بالتمهيد لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، كان على رأس اللجنة حاييم وايزمان، لكن العرب تنبهوا وراحوا يؤكدون عروبة فلسطين والقدس، من خلال تأسيس الجمعيات المناهضة لبيع أراضي فلسطين، وقد أشاعت هذه الجمعيات حقيقة الانحياز البريطاني للجنة الصهيونية.

كان أسلوب الانجليز في هذه المرحلة يركز على قيام اللجنة الصهيونية بزيارات متكررة إلى المدن الفلسطينية، ومحاولة اللقاء بزعمائها من الفلسطينيين، وقد دبر الحاكم الإنجليزي لقاء جمع وايزمان وبعض الزعماء العرب، وقد تحدث وايزمان عن مشروع الحركة الصهيونية في هذا اللقاء، وممن ردوا عليه الشيخ راغب أبو السعود الدجاني حين قال: "إن فلسطين، وأخص منها القدس الشريف، هي الكعبة 350 مليون مسلم و700 مليون مسيحي". وأكد الشيخ أن الإسلام والمسيحية سيعاملان اليهود المعاملة الحسنة.

في أيار/ مايو 1918 طلب وايزمان من السلطة العسكرية التوسط لشراء الممر المؤدي لحائط البراق مقدمًا 80 ألف جنيه ثمنًا له، وحاول الحاكم العسكري البريطاني إقناع المسلمين بذلك، وخاصة أصحاب البيوت الواقعة في هذا الممر المفترض. وقد حاول الحاكم البريطاني مرارًا إقناع المسلمين ببيع الممر، ورغّبهم بالحصول على الأموال، ولكن هذه المحاولات فشلت فشلًا ذريعًا، وقد قدم أهالي القدس عرائض احتجاج إلى الحاكم طالبته فيها التخلي عن محاولات المقايضة لوقف "أبو مدين"، قرب المسجد الأقصى.

ومن الاحتجاجات المقدمة وقع عليها كل من عارف الدجاني، وموسى الخالدي، وفهمي جار الله، وفهمي النشاشيبي، وموسى البديري، وعمر الدقاق، ومحمد توفيق الحسيني، وعدد آخر من زعماء المنطقة ووجهائها.

على إثر تفاقم الخطر الصهيوني والتعاون البريطاني مع اليهود نشطت الجمعيات الفلسطينية المناهضة لهما، ومن هذه الجمعيات النادي العربي برعاية الحاج أمين الحسيني،

والجمعية الإسلامية، ونادي الإخاء والعفاف، ومنتدى آل الدجاني، وجمعية الفدائية، وهذه الجمعية هي هيئة فدائية سرية كانت تضم عددًا من رجال البوليس والدرك العرب، ومن زعمائها السيد جودة الحلبي، الذي ألقى خطابًا بين فيه استعداد الجمعية للعمل ضدّ التحالف الصهيوني البريطاني. وقد وصف وايزمان هذه الجمعيات بقوله: "كانوا يوفدون أحيانًا رسلًا إلى القرى لإثارة الفلاحين ضدّ اليهود، وتحاول هذه الجمعيات كذلك تنظيم الإرهابيين والمؤسسات السرية؛ لكي تقوم فيما بعد بحرب العصابات ضدّ اليهود".

ومما يذكر في سنة 1918 أنه لما حلت الذكرى السنوية الأولى لوعد بلفور حاول الصهاينة الاحتفال في القدس، ولما سمع العرب بذلك هددوا بالقيام بمسيرات معاكسة، وهدد الحاكم العسكري بإلقاء القبض على كل عربي يجرؤ على القيام على ذلك، ووضعه في السجن، وقد نصح الحاكم اليهود بإيقاف احتفالهم، ولكن الفلسطينيين قاموا بأول مظاهرة احتجاج في القدس، قادها موسى كاظم الحسيني، رئيس بلدية القدس، فاعتقلت القوات الإنجليزية عددًا من الفلسطينيين إثر ذلك.

في سنة 1919، وتحديدًا في شهر شباط/ فبراير، عقد أول مؤتمر عربي فلسطيني في القدس، وحضره 27 مندوبًا عن الجمعيات الإسلامية والمسيحية من مختلف أنحاء البلاد، وقد أعلن المؤتمر في قراراته مطالبته بأن فلسطين هي سورية الجنوبية، واعتبارها جزءًا من سورية الكبرى، وطالبوا بعدم فصلها عن سورية حكومة وحدودًا وشعبًا، وقرر المؤتمر إرسال وفد فلسطيني إلى سورية لإبلاغ الوطنيين السوريين بهذه القرارات.

وفي حزيران/يونيو من هذه السنة قدمت لجنة كنغ كراين إلى فلسطين ودرست الوضع، وأبرقت من القدس في 1919/6/20 إلى ويلسون برقية قالت فيها: "إن عرب فلسطين من مسلمين ومسيحيين، متحدون في جبهة واحدة في معارضة واحدة، لا تقبل جدلًا ولا تساؤلًا ضدّ الهجرة اليهودية، وضدّ إنشاء وطن قومي لليهود، كما جاء في وعد بلفور، والكل هنا من أمريكان وإنجليز مقتنعون بأن سياسة بلفور لا يمكن أن تنفذ إلا بقوة السلاح".

وفي 1920/2/20 دعا الجنرال بولز، مدير عام إدارة بلاد فلسطين، رؤساء الطوائف وأعيان البلاد إلى اجتماع عقدة في القدس، وتلا عليهم قرار الحلفاء بانتداب دولة فلسطين، وإدماج وعد بلفور القاضي بإنشاء وطن قومي لليهود في صك الانتداب.

بعد هذا التصريح بأسبوع واحد قامت في القدس مظاهرة كبرى اشترك فيها نحو 140 شخص يتقدمهم موسى كاظم الحسيني، عرجوا في طريقهم على جميع الدوائر والقناصل الأجنبية، وسلموها احتجاجهم على جعل فلسطين وطنًا قوميًا لليهود، فكانت أول مظاهرة سياسية كبرى حدثت في فلسطين بعد الاحتلال البريطاني الغادر.

ويتضح من مجريات الأحداث أن الانجليز راحوا -وبكل ما يملكون من قوة- يسهّلون مهمة تشكيل الوطن القومي اليهودي، وقد استفاد الصهاينة من هذه العلاقة القوية مع الانجليز، فطالبوا باشتراكهم في الإدارة العسكرية فورًا، وطلبوا تشكيل لجنة للأراضي تشتمل على خبراء تعينهم الجمعية اليهودية للتثبت من مرافق فلسطين الطبيعية.

وقد ادعى وايزمان أن تصريح بلفور يسمح لليهود في يافا أن يقيموا لهم مستودعات خاصة؛ لخزن البضائع، وأن بنك أنجلو فلسطين -وهو شركة يهودية- هو الذي يجب أن يتولى إقراض مزارعي العرب ما يحتاجون إليه من قروض، وطلبوا أن يعهد إليهم باختيار رجال البوليس من اليهود، وأن يدفعوا لهم رواتب فوق ما يتقاضونه من الإدارة، ثمّ طلبوا أن تكون لهم قوة عسكرية للدفاع.

وفعلًا، شرعوا في تدريب القوة وطالبوا بالاعتراف باللغة العبرية كلغة رسمية، وقد حدث هذا كله في عهد الحكومة العسكرية، التي مُدد أجلها، وقد أوجدوا نظامًا قضائيًا يهوديًا مستقلًا.

وقد ظهر جليًا أن اليهود قد كونوا لأنفسهم دائرة استخبارات قوية جدًا، استطاعت الإدارة أن تكتم أسرارها، وحين حدثت اضطرابات عيد الفصح في سنة 1920 جاهر الصهاينة بموقفهم العدائي من الإدارة.

خاتمة

وتبقى القدس مركز الصراع الكوني الحالي والمستمر بين قوى الشر من اليهود الصهاينة ومن والاهم وبين قوى الحق من الموحدين، قوى العروبة والإسلام والإنسانية الشريفة، لم تشهد مدينة في العالم العربي والإسلامي ما شهدته القدس عبر التاريخ؛ فمنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة والقدس تتعرض للغزو، ويتصدى أهلها للغزاة... تسيل الدماء، وتهدم الأسوار، ويُهجّر الإنسان، وفي كل غزوة تتحطم الجيوش على بوابات القدس، ويظلّ الصراع دمويًا محتدمًا ما دام يوجد غزاة طامعون.

والصهيونية، ومنذ حركاتها الأولى في منتصف القرن التاسع عشر، ومرورًا بالحركة الصهيونية السياسية المنظمة بعد مؤتمر بال بسويسرا في سنة 1879، شكلت للعالم الغربي الإفرنجي رأس حربة موجهة للأمتين العربية والإسلامية. واندمجت الرؤية الصهيونية اليهودية بالرؤية الصهيونية الغربية، وشكلت تحالفًا استعماريًا لا تنفك عراه. كلاهما نبتا من منبت واحد، وكلاهما يتبنيان فلسفة استعمارية واحدة وتوجهًا أيديولوجيا واحدًا.

وعندما زرع الاستعمار الكيان الصهيوني، كان يدرك أن الأمة العربية لا بد يومًا أن تنهض، وأن الأمة الإسلامية لا بد يومًا أن تصحو؛ لذلك يجب أن يكون هناك في قلب الأمة العربية، وقلب أرضها كيان ذو عقيدة مختلفة متناقضة وذو أفكار مختلفة؛ ليشق الأمة، ويشغلها عن التقدم الحضاري والوحدة العربية والإسلامية، التي ينشدها كل عربي وكل مسلم.

والقدس التي هي رمز أساسي من رموز وحدة الأمة وتاريخها وحضارتها، يجب أن تكون في أيدي الصهاينة حسب المنظور الغربي الصهيوني المتحالف؛ لتطعن الأمة في القلب والصميم، ولتشق الأمة شقًا قاسيًا.

كل ذلك تحت غطاء ديني توراتي يزعم بأن الله وعد أجداد هؤلاء اليهود بأن تكون أرض فلسطين أرضا لهم ولنسلهم.

لذلك، فنّدنا المزاعم التوراتية لتسقط المقولة السياسية، وفندنا المزاعم السياسية؛ لتسقط الخرافة التوراتية. لم نسرد التاريخ -وهذا ما فعلناه في كتب أخرى- إنما أردنا أن نناقش الأسس، وننسفها بعون الله نسفًا، وهذا ما تمّ.

ربنا آتينا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشدًا. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبي الإسراء والعالمين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي.

3- أحمد بن حنبل، المُسند "مسند الإمام أحمد بن حنبل".

4- أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري، جُمل من أنساب الأشراف.

5- إسرائيل فنكلشتاين ونيل أشير سلبرمان، التوراة اليهوديّة مكشوفة على حقيقتها، ترجمة سعد رسم دار صفحات، دمشق 2008.

6- إسماعيل بن عمر بن كثير عماد الدين أبو الفداء، البداية والنهاية.

7- الإنجيل/ العهد الجديد.

8- باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت، ترجمة عبد الله الشرقاوي، القاهرة، دون تاريخ.

9- أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، المغازي النبويّة.

10- التوراة/ العهد القديم.

11- د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، الطبعة السادسة، دمشق 2007.

12- د. حسن الباش، القدس بين رؤيتين، دار قتيبة، 1993، دمشق.

13- د. حسن الباش، القدس من الإسراء إلى وعد الآخرة، دار قتيبة، 1999.

14- أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، الأخبار الطوال.

15- أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر.

16- د. سهيل زكار، القدس في التاريخ، الجزء الثاني، ط 1 2002، منشورات طرابلس الغرب.

17- سليمان الرحيلي، العلاقات السياسية بين الدولة ودولة الفرنجة.

18- السموأل بن يحيى المغربي، بذل المجهود في إفحام اليهود –مخطوط–.

19- عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل.

20- علي بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري عز الدين أبو الحسن، الكامل في التاريخ.

21- كتب السنة الستة.

22- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك "تاريخ الطبري".

23- محمد عبد الله الشرقاوي، بحوث في مقارنة الأديان.

24- وليم الصوري، "الحروب الصليبية".

25- ويلز، معالم الإنسانية، الكتاب الرابع، نقلًا عن كتاب اليهودية، د. أحمد الشلبي.

الإدارة العامة
شارع الحمرا - بناية السارولا - الطابق 11
هاتف: 00961-1-751725
فاكس: 00961-1-751726
ص.ب: 113-5647 بيروت لبنان
info@alquds-online.org
www.alquds-online.org